ألبير قصيرى

العنف والسخرية

رواية

ترجمة: محمود قاسم

الكتاب: العنف والسخرية (رواية)

الكاتب: ألبير قصيرى

ترجمة : محمود قاسم

الطبعة: **2017**

الناشر: وكالة الصحافة العربية (ناشرون)



5 ش عبد المنعم سالم – الوحدة العربية – مدكور- الهرم – الجيزة

جمهورية مصر العربية

هاتف : 35825293 – 35867576 – 35867575

فاكس : 35878373

http://www.apatop.com E-mail: news@apatop.com

دار الكتب المصرية

فهرسة إثناء النشر

قصيري، ألبير

العنف والسخرية / ألبير قصيري – ترجمة : محمود قاسم

– الجيزة – وكالة الصحافة العربية.

.. ص، .. سم.

الترقيم الدولى: **978 -977 -446 – 332 – 4**

أ – العنوان رقم الإيداع : **7928 / 2017**

العنف والسخرية





قبل أن تقرأ

المصادفة وحدها هى التى ساقتنا لترجمة بعض روايات ألبير قصيرى . وهى بكل المقاييس مصادفة جميلة ، وبالغة الأهمية . فـــ "قصيرى" كان مجهولا تماما قبل ان نترجم له رواية "شحاذون ومعتزون" التى نبهت القارئ العربى لقيمته، وأهميته . فهو كاتب مصرى فى كل ما كتبه رغم المسافتين المكانية والزمنية التى فصلت بينه وبين وطنه الذى رحل عنه منذ **1945**.

ومما نعتز به ان نقدم واحدة من أهم روايات ألبير قصيرى، وهى باعتراف الكاتب فى خطاب أرسله إلى المترجم روايته الأكثر أهمية فيما كتب.

وقصيرى، المولد فى مدينة القاهرة **3** نوفمبر عام **1913**، لم يكن ذنبه أن لغته الاولى التى تعلمها هى الفرنسية ، ولعله حاول أن يعوض ذلك بأن توغل فى الأحياء الشعبية فعاش فيها سنوات طويلة ، واحتك بالناس فى أروقتها ، عاشر البسطاء فكان من أفضل من عبر عنهم . من هنا جاءت أهميته ، ليس فقط لأنه كتب عنهم ، ولكن لأنه صنع منهم المفكرين وأصحاب الرأى والفلاسفة ، ففى رواياته كان فلاسفة الشعب هم ابناءه وليسوا الكتاب من أمثال قصيرى نفسه ، وفى أغلب روايات الكاتب هناك أصحاب رأى وصناع تمرد لما يدور من حولنا . وهؤلاء ينتمون إلى هذه الطبقات الدنيا ، مثل شخصية عبدالعال فى رواية "منزل

الموت الاكيد" . . فهو يقف برأيه وفكره ضد صاحب المنزل الذى يُسوّف المستأجرين فى الاصلاح ، حتى تجيء لحظة الخطر .

وفى بعض روايات قصيرى هناك المثقف الذى عليه ان يعتزل المجتمع وليس امامه سوى ان يعيش مع البسطاء ، وفى الاحياء الشعبية ، وهذا المثقف ثورى سلبى فى رواية "شحاذون ومعتزون" . . يعيش على الهامش ، يمكنه ان يعمل فى ماخور ، أو يرتاده ، من اجل لحظة متعة ثم يهرب إلى المخدرات ، ويظل ليلة متيقظا ، وينام طيلة النهار . وقد تماثل هذا فى كل من "جوهر" استاذ التاريخ المستقبل ، "ويكن" الشاعر ، "والكردى" الموظف . ونحن لا نعرف منبع جذور الاستاذ ، لكن "يكن" يعيش مع امه الفقيرة المعدمة ، التى تنكفىء فى غرفتها على ألة الحياكة من اجل ان تدبر معاشها ، وبعض المطالب الصغيرة لابنها الشاعر الشعبى الدميم الذى عرف السجن ، اما "الكردى" فهو الموظف الذى لا أسر له ولا جذور ولذا فمن السهل ان يرتبط باستاذه جوهر ، نموذجه المفضل .

وهذا الثلاثى موجود بشكل ما فى رواية "العنف والسخرية" التى كتبها قصيرى عام **1964** أى بعد رواية "شحاذون و معتزون" بتسع سنوات تقريبا . ورغم أن هناك بعض الاختلافات فى السمات والمكان فى الروايتين ، فان هناك نقاط تشابه واضحة ، ولكنه تشابه شكلى فى المقام الاول ، فاذا كانت رواية "شحاذون ومعتزون" تدور فى شوارع منطقة الازهر وما حولها فى اواخر الثلاثينات ، فان احداث رواية "العنف والسخرية" تدور فى مدينة الاسكندرية ، بين حى الجمرك وشارع

الكورنيش وأبنية المدينة الشعبية . ويقوم قصيرى هنا بتجريد المدينة ليجعلها أى مكان فى العالم ، فهو لا يذكر اسم الاسكندرية مباشرة ، وان كان قد سمى حى الجمرك بالميناء والكورنيش ومن الواضح ان الكاتب قد صاغ هذه الرواية ، ومدينة الاسكندرية فى ذاكرته بعد ان غادر مصر بحوالى عشرين عاما ، وذلك خلافا لذاكرته مع القاهرة عندما كتب روايته السابقة ، حيث كانت المسافة الزمنية اقل . . لذا سعى قصيرى إلى تجريد المدينة من اسمها ، لكنه لم يطمسها تماما ، وفى هذه المدينة عاش فى الاحياء الشعبية ، فأبطال هذه الرواية يعيشون بكافة مستوياتهم فى اطلال المدينة ، بدءا من كريم الذى اختار غرفة فوق السطح ، يقيم بها منذ سبعة ايام فقط وهو القادم من حى شعبى مليء بالحركة والبشر ، ثم خالد عمر الذى تحول إلى تاجر كبير ، وهو الذى لا يجد متعته الا مع الفقراء ، ولا يحس بأى سعادة الا بين البسطاء . اما هيكل ، فرغم ان الرواية تشير انه يتصرف كأحد ابناء الطبقة الراقية ، فاننا نفهم من حواره مع خادمه "سرى" انه يعيش فى منطقة شعبية ، يهتم فيها الناس بأن يعرفوا المزيد من الحكايات عن هذا الأنيق صاحب البدلة الواحد .

المكان الوحيد الفخم الذى نراه فى الرواية هو "النادى" الذى يرتاده المحافظ الجديد واعوانه ، وهو من ناحية مساحة المكان الدرامية يعادل الماخور فى رواية "شحاذون ومعتزون"ونعنى هنا بالمساحة الدرامية انه المكان الذى تدور فيه أغلب اجزاء الرواية ، وهو الساحة التى تحدث فيها مواجهة المحافظ من طرف واحد . .

ولا شك ان هناك تشابها فى العلاقات هنا مع رواية "شحاذون ومعتزون" وقبل ان نشير إلى ذلك ، يهمنا الاشارة إلى ان المثقف قد تحول إلى متمرد ايجابى وان كان شكل التمرد هنا قد اتخذ شكلا سلبيا هو السخرية من المحافظ ، فاذا كان جوهر وزملاؤه قد اعتزلوا الحياة العامة ، وعاشوا على الهامش ، فان متعة السخرية من المحافظ هى عملية ذاتية خاصة بهيكل الذى يشعر بالندم الشديد لأن المحافظ قد اقيل من منصبه ، لانه كان لعبته التى يمارس عليها تمرده . .

"وهيكل"هذا قريب فى بعض صفاته من جوهر ، فهو رجل ينتمى إلى طبقة اجتماعية اعلى قياسا إلى زملائه ، وهو صاحب رواية للعالم من حوله ، وهذا هو سبب اعجاب مجموعه من الشباب به ، والتفافهم حوله ، فاذا كان جوهر قد وجد الحياة الهامشية التى اختارها سعادته الخاصة ، وهو الاستاذ الجامعى سابقا الذى اكتشف زيف التاريخ ، فان هيكل اصغر سنا (32سنة) يعيش شبه معدم ، ولذا فانه فى حاجة إلى تمويل من خالد عمر الثرى الذى يمكنه ان يتاجر حتى فى النمور .

هذا الـــ"هيكل" يعتبر المحرك الئيسى للتمرد الساخر . واعجاب كل من كريم وخالد عمر به اشبه بنفس الاعجاب والتقديس الذى كنه كل من "الكردى" "ويكن" لجوهر ، وذلك رغم اختلاف سمات الاربعة ، فـــ"كريم" شخص هامشى ، يعمل فى صناعة الطائرات الورقية ، وخالد عمر تاجر ثرى لم يكف عن الاختلاط بالبشر ، اما الكردى فهو الموظف الذى يعبر عن تمرده بكلمات رنانة ، وهو شخص مجوف ، يمكن قيادته

بسهولة ، اما "يكن" . فهو اسم لشاعر حقيقى عرفه قصيرى وهو فى الرواية عرف السجن ، وعرفه الناس متمردا ، ولكنه مشغول بالهروب من رجال الشرطة ، وعشق فتاة تحب الموسيقى وتدرسها من طرف واحد . "يكن" هو الشخص الوحيد المبدع فى عالم قصيرى فى هاتين الروايتين ، وكما اشارنا فان صناع هذا العالم هم من البسطاء ، وليسوا من المثقفين او المبدعين . مثلما حدث فى رواية "منزل الموت الاكيد" .

وهناك شخصيتان مختلفتان تماما فى السمات هما: "نورالدين" ضابط الشرطة الشاذ جنسيا فى رواية "شحاذون ومعتزون" . . والذى يكتشف كنوز هذا العالم الهامشى ، فيقرر ان يصبح مواطنا فى مملكة جوهر بعد معرفته ان هناك فلسفة خاصة لهؤلاء الناس ، ثم تزداد حيرته عندما يحاور "يكن" فى غرفته بالفندق حين يحدثه عن القنبلة الذرية المنتظرة .

تقرر هذا الحوار من جديد من خلال الاستجواب الذى تم بين الضابط حاتم وبين كريم فى مبنى المحافظة . فحاتم يميل إلى مثل هذا النوع من الحوار مع متمردين من طراز كريم ، ورغم خبرة الضابط الطويلة فى الاستجواب ، فانه يحس بالارتياح حين يحاور كريم ، بل ويدهش حين يراه يقبل يد المحافظ دليلا على تغيره وتحوله المضاد . . وكأنه يحس ان على كريم الا يفعل ذلك مهما كانت الاسباب . .

اما الشخصية المقابلة فى رواية "العنف والسخرية" . . فهى المدرس "عرفى" ، وهو رجل يختلف كثيرا عن نور الدين ، فهو يعيش فى عالم من البراءة . تمثله امه المجنونة من طرف ، فالمجنون هو الشخص الوحيد الذى

لا يعرف المكر ، والخبث ، اما على الطرف الثانى فهناك تلاميذ مدرسته الصغيرة الذين يأتون للتعليم لديه طوعا ، وهو يعلمهم على طريقته الخاصة ، فالمدرسة مفتوحة ، والاولاد على سجيتهم وهم يأتون إلى المدرسة صيفا فى اثناء العطلة ، واثناء حرارة الجو التى تلهب المدينة ، وهؤلاء الصغار يجب ان يكونوا اطفالا ، فاذا خرج أى منهم من مرحلة الطفولة فقد براءته ، وتعلم الخبث والمكر ، فالكبار تملؤهم الانانية والغباء والقبح والطموح الخائب وانهم جميعا معزبون بطموحهم ، لذا فهو لا يتوانى عن الاشارة للصغير "زرطة" الذى لم يعد طفلا بأن موعد طرده من المدرسة قد اقترب . . لأن على الأطفال فقط (من سن السادسة حتى سن العاشرة) ان يبقوا هناك . .

ويهمنا ان نشير ايضا ان قصيرى لم يغير وجهة نظره فى هذه الرواية تجاه المرأة فنحن نرى "قمر" عاهرة صغيرة ، وكأنها صورة مكررة من "ارنبة" التى ماتت ، مخنوقة من رواية "شحاذون ومعتزون" ، و" قمر" هنا عاهرة ، لعلها تمارس هذه المهنة لاول مرة ، والماخور هنا هو الكورنيش نفسه ، حيث يصطاد الرجال بنات الليل او العكس ، وفوق هذا الكورنيش التقى كريم بعاهرته التى جاءته فى أول الرواية . . ثم جاءته مرة أخرى فى نهايتها . . بدت كأنها استعذبت هذه العلاقة . . وهى ليست محترفة مثل "ارنبة" رغم تقارب عمريهما فهى تصدق كريم المفلس حين يطلب منها ان تأخذ ما تريد من المال فى جيبه الخاو . . فتتردد وتنصرف . . ثم تنتظره على السلم بعد اسابيع من اجل ان تنام فوق سريره . .

والنساء فى هذه الرواية بجميع اعمارهن ، عدا ام عرفى ، يسلكن سلوكا رديئا وفاحشا ، ابتداء بـــ "سعاد" التى تتجسس على ابيها من اجل هيكل ، وتنقل له الاخبار اول بأول وتنتهى علاقتهما بمجرد ان تؤدى وطرها المرتبط بمصلحة هيكل . . اما أصغر النساء وهى الطفلة التى يراها جالسة تنظر اليه وكأنها توده ان يخطفها ، فهى ليست فى نظره "طفلة" بل انثى مستعدة ان تهرب مع فارسها رغم انها فى الثامنة . .

أما النموذج الوحيد البرئ ، النقى ، فهى ام عرفى العجوز . . المجنونة التى تعيش من خلال عقلها المفقود فى جو من الفنتازيا الوردية ، والحلم الازوردى ، الذى يذهب بها بعيدا ، وهى تتخيل نفسها بملابسها الرثة أميرة أحلام جاءت من زمن بعيد ، إلى زمن الصبا فى أحد مشاهد الرواية الاكثر تأثيرا فى النفوس .

محمود قاسم

(1)

بدا النهار معلنا عن قيظ شديد بشكل ، لم يسبق له مثيل .

أحس الشرطى الذى استلم نوبته قبل قليل عند مفترق الطرق الاكثر حيوية فى المدينة ، بأنه فريسة لسراب . . يحيط بعينيه ، كان العرق يسبح فوق وجهه العبوس مما جعله أشبه بنائحة وسط جنازة ، كان ذلك بالتأكيد سببا لمتاعبه الظاهرة ، دعك عينيه مرات عديدة ، وكأنه يأمل فى رؤية أكثر وضوحا من رؤيته الخائبة ، ولكن هذه المحاولة البسيطة لم تحقق أى نتائج . هنا أخرج من جيبه منديله ذا المربعات الحمراء والبيضاء ، والمصنوع من قماش خشن بادى القذارة ، وجفف وجهه بكل حمية . اشرقت ، للحظة قصيرة ، رؤيته للعالم ، فأولى عينيه ناحية السراب مما صدمه ، لـــن ما رآه– باعتبار أن عناصر السراب تحدد رؤيته– كان شحاذا . إنه أجمل شحاذ رآه منذ أمد طويل . كان يتخذ ركنا فى عمارة فخمة ذات طراز جميل من البناء الحديث ، فضلا عن أن فى هذه العمارة يوجد بنك ومحل جواهر . أى أن هذه المعالم الميتافيزيقية تتطلب الحماية ، دون هوادة ، من مثل هذا الوغد أعاد المنديل إلى جيبه ، وظل يرمش طويلا بعينيه . حتى لايفقد رؤيته الجديدة الجديدة . توجه الشرطى يمينا نحو هذا الوقح ، الذى بدت على ملامحه سمات المجرمين . لقد صدرت الأوامر منذ شهر بأنه يجب أن تتخلص المدينة من هؤلاء الملاعين الأوباش الذين يعيشون فى أفخم الأماكن

كالنمل فوق قطعة عسلية . إنه هناك وعليه أن يعرف أوامر المحافظ الجديد العديدة– وهو رجل معروف بمبادراته الجريئة– والأكثر صعوبة عند التنفيذ . كان طموح المحافظ الجديد هو تطهير الشوارع وحمايتها من كل ما يمكن أن يمس شرفها– انه يتكلم عن الشوارع كأنها شخصيات حيه– وأيضا ، من بعض الداعرين والباعة المتجولين أمام شرفات المقاهى. وجامعى أعقاب السجائر وخبثاء آخرين أقل أهمية . لقد أعلن حملته ضد الشحاذين ، ذلك الجنس المسالم والمتغلغل بشدة فى الأرض . الذى لم ينجح أى من الغزاة قبله فى أن يجتثهم . وكأنه أراد بذلك أن يخلص الصحراء من رمالها .

وبصفته موظف ينتمى لدولة قوية . تقدم الشرطى نحو الشحاذ (بدت الملامح المتجهمة لهذا الأخير شاهدا على حالته بشكل يثير الغيظ) ، وبدأ فى اتباع قواعده الألوفة . لكن الشحاذ لم يتصرف أبدا حسب ما سمعه من سباب ، فهو شبه ميت . إنه عجوز ذابل بشكل بشع ، ذو لحية رمادية كست كل وجهه تقريبا . الذى اختفى تحت عمامته البالية . وبدت عيناه مغلقتين ، واكتست حوافها بهالات سوداء عريضة . مما أضفى عليه ملامح مبهمة وغامضة . انها الملامح المآلوفة التى يمكن ملاحظتهافى أى شحاذ . بل أكثر . كان يرتدى اسمالا متعددة الأوان ذات أشكال بالغة البهرجة . والتى تناسب بهلوانا أكثر من شخص على شاكلته . هذا العجوز المنحرف . النازح من أصل منحط ، يبدو غارقا فى نوم بليد ، لم يبد عليه قط أنه قد إنزعج من تلك الضوضاء الهائجة التى أصدرتها المركبات العديدة القادمة من الطريق إلى

المفترق . راح الشرطى ، وهو يطلق قذائف الشتائم والسباب ، يركل الرجل بقدمه مرة ، ثم ركلة مرة ثانية كى يهرول جاريا . وأمام هذا الجمود المستفز . استعد أن يكيل له الثالثة . هنا رأى الشحاذ يتجاوز مكانه ويتهاوى أرضا . ويتصرف بشكل مزرى كأنه بلا حياة ، مرت لحظة تصور فيما الشرطى أنه قد قتله فاستبد به رعب ، ولنتابه احساس بفقد لحظة تصور فيها الشرطى أنه قد قتله فاستبد به رعب ، وانتابه احساس بفقد الاتزان . فالشحاذ قد مات ، على الأرجح . أصابه الحادث بالتفسخ ، فعليه أن يجعله على قيد الحياة . انحنى نحو العجوز ، . وأطرق على "عمته" . ثم بدأ يهزه بطريقة جامدة وبكل وحشيه ، كأنه يود ان يهبه الحياة . بدا من الصعب ادراك هذا الموقف الغبى ، فجأة شوهدت رأس الشحاذ العجوز تتخلص من رقبتها بسهولة كأن ساحرا امسكها وظلت ملتصقة بالعمة . لم يتوقف الشرطى عن هزه فى الفراغ كأنه نصب تذكارى يدمى . اطلقت الجماهير ، التى تجمعت منذ قليل حول بطلى هذا المشهد ، صرخة مرعبة . . واحتجت على هذا الامتهان بإطلاق شتائم مقذعة موجهة إلى الشرطى . الذى بدا وكأنه فقد سيطرته على نفسه ، راح ينظر إلى جموع الصارخين الذين يعاملونه كقاتل . وكأنه شخص ابتلى بتشنج فى معدته . كان يلزمه بعض الوقت قبل أن يسترد انفاسه فى هذا الصباح الدامى .

لم يأخذ فى حسبانه أن فى الأمر خدعة . لانه تعامل مع الشحاذ ككائن من لحم ودم وليس دمية صممها فنان واع راح يعرض فنه فى هذه الناحية الراقية وفى نيته أن يحقر من شأن الشرطة ، لم يقلل هذا

الاكتشاف من غضب الناس . بل زاد من حدته . راحت الجماهير تضحك ساخرة ومستهزئة من هذا الشرطى المنحوس الذى وقع تحت هول المفاجأة . بدا الجمع السعيد وقد اخترقه النصابون كأنهم رءوس نبال ، راح البائس يلتقط أنفاسه المتهدجة ، فأخذ يطلق بصفارته سلسلة من النداءات الحادة ، مستدعيا زملاءه الشجعان من كل ركن . ولكن هذه النداءات ظلت بلا صدى .

تفرق الجميع ، بعد أن نالوا من السعادة ما يكفيهم للنهار بطوله . توجه كل منهم نحو هدفه وهو يعلق على الحادث بطريقته . دائما بنفس الروح اللئيمة التى يمكنها إثارة الأوباش وهى ترى ممثل السلطة وقد أصابته محنة .

(2)

على مسافة كيلو متر واحد ، وفى غرفة تقع فوق سطح عمارة تتكون من ستة أدوار تطل على البحر . كان الشاب كريم ، مؤلف هذه الملهاة ، أبعد ما يكون عن الشعور بالتفوق تجاه هذا الموقف الصادر من سلطات المحافظ . انه لا يفكر فى هذا . فهو الآن ممدد فوق سريره عاريا حتى الجذع وقد انشغلت أصابعه بقص خصلة من شعره المتساقط على جبينه . انه يتذكر ببلادة ، كسلطان أصابه السأم يسخر من الثروة والمتعة ، فيترك كل شئ ، ويترك نفسه لهذا السأم الرخو ، بدا كأنه يتذوق متعة شهوانية وهو يتأمل خليلة الليل التى وقفت ترتدى ملابسها وسط الغرفة . اكتست شفتاه بابتسامة دامت للحظات . انه يحب امتلاك غانيات ذوات مؤخرات متموجة مثيرة . تتأرجح أمام عينيه من أجل إثارة متعته الخاصة ، لا يميل للمخلوقات البائسات0التقطها بالامس فى الشارع) لم يبد أن سحرها المتواضع يخفى وراء أى غموض . هذه البهجة البسيطة التى حاول أن يخلقها بموقفة الضعيف والحساس ، أخفت حالة من التوتر الشديد ، شعر بها منذ أن استيقظ . وكأنه على نفس الحال دائما . يتصرف كريم هكذا دوما كى ينجح فيما يخططه لاكتساب ود عشيقاته العابرات ، فان نجاح هذا التخطيط– أو بعضه– لا يترك أبدا فرصة للشفقة ولا لخفقان القلوب . لقد اقتربت الآن اللحظة التى عليه أن يكشف فيها لعبته .

لم يكن الشاب كريم فى احسن حالاته ، ورغم أنه متعدد التجارب فانه انسان قليل الحظ . يعرف هذه العاهرة الصغيرة التى صحبـــها إلى بيـــته بعـــد أن وضع الشحاذ المزيف عند مفترق الطرق . لن تثي رأى متاعب . فهى لا تبدو فتاة فضائح . حتى لو أغضبها . لكن هذا لا يهم كريم . فليست لديه النية فى أن يراها مرة أخرى . ثم أن الفشل المتوقع لملهاته لا يقلقه الا بشكل جزئى . فالامور تسير بطريقة أو بأخرى . وما يوده حقا هو التخلص منها على وجه السرعة . بدأت الطريقة البطيئة التى ترتدى بها ملابسها فى اغاظته . تعجل ان يراها تذهب وأن يبقى وحده . فقد كفت الفتاة عن إثارته . هناك حوادث أكثر عنفا وغرابة – مما يحدث عادة – عليها ان تظهر فوق سطح الارض . وهو يريد أن يجرب طعم الوحدة . أو ان يكون فى صحبة زملاء يمكن أن يفهمهم . لقد شارك امرأة المتعة ، انها تتسم برقة مما لا تتنـــاسب معه ، ان هؤلاء الاناث بالتأكيد خلقن لهذا النوع من المزاج الكامن فى درب الشيطان . انهن لا يستـــطعن قـــط إدراك القيـــمة الحقيقـــية لكل غبـــاءات الطبيـــعة للعين ، على سبيل المثـــال ، فيما يتعلق بشخص مهم كالوزير . فإنهن يبدون جادات فى كافة الأمور الهزليـــة الخـــاصة بطغاة السلطة . وهذه مثل الأخريات ، فلم يعـــد لكريم ما يقوله لها .

لم يكف عن تأملها ، وهى ترتدى ملابسها ، خصها بابتسامته كأنه سلطان أصابه السأم ، فالفتاة الآن ترتدى جوربها ، ويبدو وجهها المشرئب . وعنقها الطويل ، ثار كريم فى صمت ، وبدا له أنها تنظر اليه

بنوع من العتاب . هل تشك فى شئ؟ أخيرا ارتدت فستانها وبدت متأهبة.

لقد حانت لحظة المكاشفة ، اكتسى كريم بمظهر يليق بسيد كريم اعتاد السخاء . وكأنه ينزه نفسه عن أى مساومة ، وهو يقول:

– عزيزتى زوزو ! قبل أن تـــذهبى ، مدى يدك فى جيب سترتى وخذى ماتريدين .

ظلت الفتاة بلا حركة . لعلها تبحث عن السترة . ولكنها سرعان ما أخفضت عينيها و كأن حالة من الخجل أصابتها . أنها فتاة صغيرة، ذات وجه طفولى .

وملامح مهيبة ومؤثرة . أدرك بلا أى معاناة وبأسلوبها المؤثر ، أنها مستجدة فى مهنتها . ترتدى فستانا من القطن المطبوع . ويتحفظها المتواضع ومساحيقها الخفيفة ، بدت أشبه بتلميذة منها كغانية . بدت لها مغامراتها مثيرة للحزن ، فبالامس هربت من شرطة المحافظ عندما التقى بها كريم ودعاها– متبعا أسلوبه المتخايل المألوف– لقضاء الليلة فى شقته . حقا إن كريم قد كسب بهذا النداء الانيق رضاها . وكأنه يعطيها الامتياز بأن يصحبها إلى بيته . تركت الفتاة نفسها لهذا الاغراء . وهى التى لم يكن لديها أى خيار .

ظلت صامتة مترددة . إنها لحظة مثيرة للشفقة . كانت سترة كريم معلقة فوق طرف مقعد على مسافة خطوات من الفتاة ، لكن لسوء الحظ

فإن الجيوب تقريبا فارغة . فالنقود التى بها لاتكفى لإطعام عصفور ، ولا مخلوق ضامر . راح كريم يتأمل الفتاة ، وقد أصبح فريسة لشك يتنامى كل ثانية أو لحظة وراء أخرى . فكيف ستتصرف؟ هل ستقترب من المقعد وتفتش جيوب السترة؟ لم تجرؤ الغانية أن تنطق بكلمة! لم يعاملها كأنها أميرة! ألم يكن عليها أن تصدق المشاعر السامية التى ظل يعاملها بها طوال ليلة حب لا تنتهى . تذكر كريم تأوهاتها النارية المليئة بالمغالاة لدرجة جعلته يطلب منها الزواج ، لم يدرك أن شيئا ما يعتمل فيها . هل تكدرت مشاعرها الآن وتبعا لحركاتها السافلة يمكنها أن تهدم نموزجا مثاليا بدا لتوه؟ لاشك أن هذا سيكون امرا غبيا بالنسبة لها .

ساد الصمت الرهيب . استعد كريم لفتح فمه ليقول لها بعض الكلمات . حاول أن ينفذ الموقف بوسائل أخرى ، إلا أن الفتاة تكلمت أخيرا:

– آه . ! أشكرك لاداع .

لقد كسب الرهان . فالان يمكن لكريم ان يلح بلا مخاطرة . مدد جسمه . وغمس رأسه فى الوسادة ثم تثاءب فى نشوة:

– لكن أنا أصر . هيا خذى ماتودين . وإلا غضبت .

قالت مرة أخرى: الآن لست فى حاجة لشئ .

بدا كريم مغتاظا لهذا الرفض . وانتابته حساسية:

– زوزو . انت تؤلمينى . أعتقد أننا لسنا بغرباء عن بعض . فكل ما معى لك ، الظاهر انك لم تحبينى؟

اعتذرت الفتاة كأنها قد تنبهت للخطأ الذى أرتكبته تجاه الشاب الصغير:– لا أريد أن أهينك . لكن من المستحيل أن أقبل نقودك . فقد كنت لطيفا معى .

أجاب كريم الذى نجحت كلماته الاخيرة فى تنفيذ خطته:

– بكل بساطة ، فالحب هو الذى جعلنى اتصرف هكذا . لا أريد أن أجبرك . تصرفى كما تشائين فأنت فى بيتك . فأنا اعتبرك كزوجتى .

ارتسمت عليها ابتسامة حزينة ، ربما بسبب تضخم هذه الاكذوبة وربما لانها أحست باستحالة أن تكون زوجته . وبدون أن تنطق بكلمة . امسكت حقيبة يدها التى كانت فوق المائدة . وقررت أن تنصرف ، لقد نجح كريم فى أن يجعلها تحس أنها شابة محترمة ، وإلى حد تلاشى مظهرها الضائع . يمكن أن تكون ابتسامتها متقلبة . فهى المرة الاولى التى تنظر اليه بعد ليلة الحب الطويلة ليس عبر ستار الرغبة . ولكن كمخلوق آدمى مطارد ، لا مأوى له . هذه المعاينة جعلته من الصعب أن ينسى موقفه كسلطان متوج ، يحب الغانيات ذوات المؤخرات الرخوات والشهوانية غير البادية .

لم يبق الآن فى الغرفة سوى مشهد متوتر وحقيقى . فبلا شك ، فهذه الفتاة تخفى بداخلها مأساة . لم ينتظر كريم هذا الهجوم اللئيم من

القدر . فما فعله بدا له أمرا وحشيا . تساءل: "ياله من أمر محزن . فها أنذا فريسة للندم" .

حاول أن يهرب من هذا الضعف ، لكن الشفقة التى أحسها بدأت تتعمق فى احشائه . من الضرورى أن يفعل شيئا ما لحساب الفتاة التى أصبحت مفروضة عليه . عليه أن يساعدها بأى طريقة ، وألا يتركها ترحل هكذا . لكن كيف؟

استند على كوعه ، وألقى نظرة مليئة بالأمل على سترته . كأنه يفكر فى اكتشاف كنز منسى داخل الجيوب . وفى اضطرابه انتظر حدوث معجزة . فكر بسرعة فى كل ما يمكنه أن يقدمه لها بعيدا عن النقود . كى يبرهن لها عن رقته . وأخيرا . اعتقد أنه وجده بكل بساطة . سوف يسألها عن اسمها . فــ "زوزو" هو الاسم الذى أعطاه كريم لها اثناء كل غزوات الليل . ولاسباب تسهيلية . وأيضا حتى لا يحتفظ منها بأى ذكرى محددة . حسنا . هذه الفتاة تتصرف بشكل مختلف . كان عليه أن يبكى عندما انتابته الفكرة انها تعمدت ألا يعرف اسمها . فجأة شكلت معرفة هذا الاسم بالنسبة له غموضا بالغ الأهمية .

سأل برقة متناهية فى صوته:

– ما اسمك؟

ترددت قبل أم ترد . أحست أنها قد صُدمت بهذا الاهتمام المفاجئ ، قالت:

– اسمى قمر .

– حسنا ياقمر . أنا ممنون لمعرفتك . مرى علىّ قريبا . سوف أعتمد عليك .

قالت والفرحة تشع فى عينيها: حقا؟ ألن أزعجك؟

– أبدا . على العكس . فأنت هنا كأنك فى بيتك . ألم أخبرك بذلك؟

– كم أنا سعيدة للغاية . سأذهب الآن .

كان عليه أن يقوم . ويذهب إليها ويقبلها . ولكن كريم تردد أن يتورط أكثر فى هذه المغامرة ، فهذه الفتاة قد حطمت قلبه قليلا . ويمكنها أن تجعله مهووسل . لم يتحرك . قالت وهو لا يزال نائما:

– سلام عليكم .

وقبل أن ترحل . انتابها أحساس انسانى نادر كى تشكره على الليلة التى قضتها تحت سقفه . لدرجة اعتقد عند سماعها أنها بالغة الشرف والكرم .

تخيل كريم أنها قد خمنت ، وهى فى حيرة ، أم كلماتها الحائرة تقطر سخرية بشكل بشع . ولكن هذا غير محتمل بالمرة . فكل شىء فى داخل الفتاة الصغيرة يتنفس بجلاء وشرف . أحس كريم بالخجل لأنه أفسد

طهارتها ، استبد به الندم فقد تملكته على طريقتها حتى الاعماق . ووعى لذلك جيدا .

فتحت قمر الباب وظهر السطح الغارق فى الشمس . انفتح الباب إلى داخل الحجرة . قال كريم:

– دعى الباب مفتوحا .

وبينما هو يسمع الباب الخارجى ينغلق على الفتاة ، أحس كريم بأنه يتخلص من عبء ثقيل . أخيرا يمكنه أن يتنفس على راحته قفز من السرير . ثم راح يضيق حبل سروال بيجامته . وخرج إلى السطح ، انه يسكن هذه الغرفة منذ حوالى اسبوع حيث يتمتع بمنظر البحر الرائع ، انه يختلف تماما عن مسكنه القديم المظلم الذى كان بلا هواء ، والذى يقع فى أكواخ الأحياء الفقيرة . يستيقظ كل صباح تنتابه مشاعر الفرحة العارمة . وأول شىء يفعله هو الخروج إلى السطح ، كى يتأمل المنظر الذى يصيبه بمشاعر متميزة . فهو لم يشبع من مثل هذه الاطروفة . حتى قراءة الصحيفة التى تعتبر حتى الآن العنصر الاساسى لمتعته – حول وقائع عالم خصب ملئ بكل أنواع الجنون – أصبحت بعد هذه الدورة من الامور المألوفة . وفى طابقه السادس يبدو كأنه مكتشف فى أعالى الجبال ، أطل كريم على المدينة المتهالكة المبانى . حيث تزدهر حشود الاغبياء والأوغاد . هذا المنظر العام لمجتمع ينحاز أكثر للصوص الدمويين الذين يسببون له معاناة لا حدود لها . فضلا أنه يعتبر ان مسكنه الجديد يجعله أشبه بمراقب حيث يمكن لمزاجه أن ينشرح .

استند على حاجز الطوب الاحمر الذى يحف السطح وتأمل البحر . . حتى تلك السحب البعيدة التى تسد الافق . كان البحر مسطحا ولامعا كالمرآة . وعلى يمينه ويساره تمددت المدينة . وهى ترسم بعماراتها الحديثة ذات الألوان الواضحة ، الصورة الخادعة لمدينة مزدهرة . لا يمكن للقادم من عرض البحر ، أن يشك أن خلف هذه الواجهة الشديدة اللمعان تقع الأحياء الشعبية بأكواخها القذرة وقمامتها الوفيرة . أحس كريم بحرارة الشمس فوق جذعه العارى . فتنفس بعمق . ثم فرد قامته . ونظر أسفله إلى بقايا الكورنيش المسفلت الذى يمتد على الشاطئ بطول عدة كيلو مترات . انه طريق واسع مزدوج . رصيف مصنوع للمتنزهين الذين يأتون فى المساء باحثين عن نسمات البحر . وقد طلى بطبقة من الجبس ، تعبر سيارات عديدة قادمة من دروب متشابهة يراها من أعلى ، أشبه بألعاب ميكانيكية . وأحيانا تتجسد سعادة كريم عندما يبدو أحيانا حوذى نائم فى عربته الحنطور كأنه ألعوبة بشرية فى هذه المطاردة الجهنمية نحو العدم . لكن من النادر أن نرى انسانا فى راحة . فالشرطة تطارد الكسالى والعاطلين . تعاملهم كمجرمين ، إنها الحضارة ، طراز من الحياة السهلة الطيبة ، عليها ان تختفى . ففوق الرصيف المخصص للمتنزهين . يمشى بعض المارة المتعجلين للوصول إلى حيث لا يعلم . يتحركون بخطى سريعة . هناك شىء من التغيير فى المنظر . فهو لم يلحظ أى أثر لصعلوك نائم فى الشمس ، ولا أى جسد متمدد أو حتى منحنى فوق الارض . لقد أصبحت الشحاذة عملا سريا . أين اذن سيقف الشحاذون؟ يمكنهم أن يعملوا الآن فى أحد المصانع .

يا للحزن! فان غياب الشحاذين من طريق الكورنيش دليل عصر جديد . لقد بجح المحافظ الجاهل ، بأفكاره العبثية ، فى تغيير المظهر الاساسى للمدينة . تساءل كريم عما أصاب الدمية التى وضعها بالأمس فى وسط الحى الافرنجى . هل اكتشفها أحد؟ أحس بالأسف أنه لم يستطع أن يحضر لحظة قبض الشرطى على الشحاذ المزيف . لقد كانت تلك فرصة للمزاح . هل يمكنه أن يثير بعض الصدى فى الصحافة . ذلك ليس مؤكدا . فكل الصحف فى خدمة المحافظ . ولا تجرؤ أبدا على نشر خبر تجعل منه سخرية للأطفال الصغار . لا يهم . فالمحافظ سوف يعلم بهذه المحاولة التى تحولت إلى ظاهرة سخيفة . فرأسه المنفرجة الزاوية سوف تنفجر . لن ينتظر تأكيد ليكون محل هجوم بطريقة غير عملية . إنه سعيد حين يقبض على بعض أعضاء الحزب الثورى السرى الذى سبب لسنوات بعض المتاعب للمحافظ الذى فى السلطة . والذى عليه التخلص من كل الدعاية المضادة لمصالحه . لم يعرف سوى نوع واحد من الأفكار المدمرة: أفراد متشددين فى حقدهم . يمجدون أعمالهم . ومستعدين أن يموتوا من أجل سيادة القانون والعدالة ، باختصار فإن الناس الذين يأخذون الامر بجدية مثله . يمكنهم أن يعملوا على تفريخ المدينة بنوع مجهول من الثوار ، ثوار ماكرين أصحاب مزاج عال . ويعتبرونه أشبه بدمية – هو وأمثاله فى أنحاء العالم – من أجل ألا تكون أفعاله وحركاته سوى تشنجات عصبية وزفرات بدت لكريم أشبه بغباءات كبيرة . وجد نفسه مصابا بحالة من العصيان لا يعرف أى أسلوب يسلك . رغم أن الشحاذ المزيف صنع ملهاة لا تنقصها الدعاية . ليست سوى أمر تافه

مقارنة بالآلة التى لا حد لها من الخبل . كان كريم يعرف أن صديقه ورفيقه الحميم "هيكل" يتمتع بالدقة والكفاءة وأنه يمكنه أن يحطم سلطة المحافظ للأبد .

ظل هيكل شخصا غامضا فيما يتعلق بتفاصيل هذه المؤامرة الساخرة دافعه فى ذلك هو اقتراب الكفاح الشرس الذى عزم هيكل أن يعلنه . لقد قرر هيكل أن يقابل خالد عمر بعد أن كلفه برسالة لهذا الاخير . . كى يحدد له موعدا هذا المساء . هذا الموعد يعنى أن "هيكل" توصل إلى خطة هجومية . وأنه فى حاجة إلى دعم مادى كى يجعلها قابلة للتنفيذ . فخالد عمر هو الشخص الذى يمكن للنقود ورغد العيش أن يجلبا له فكرة خفية . إذن ، ففى هذا المساء سيعرض هيكل مشروعه . وسيتم اللقاء فى مقهى بالحى الافرنجى . أصر "هيكل" أن يقابل التاجر وجها لوجه– بلا شك– فهو يريد أن يقلل من نفوذه ، . كان كريم واثقا من نتيجة هذا القاء . فسوف يقع خالد عمر بالتأكيد تحت سحر هيكل الذى لايقاوم ، فهيكل شخص يختلف عن الشخصيات التى قابلها فى حياته .

لايزال الوقت مبكرا للذهاب لمقابلة التاجر . فهو لايذهب إلى مكتبه إلا فى ساعة متأخرة من النهار . وبينما هو ينتظر ، انحنى كريم على جدار السطح ، وراح يفكر فى المرارة المتزايدة التى أصابته هو وأصدقاؤه بسبب المحافظ . فجأة هبت عليه ذكرى العاهرة الصغيرة وكأنها قد ولدت قصة حب كبيرة ، استطاعت أن تملكه . وعد نفسه أنه لو رآها

مرة أخرى فى الليلة القادمة . فسوف يعطيها بعض النقود وهدية ما . وما أن لمعت هذه الفكرة المؤثرة حتى عاد إلى غرفته وتوجه نحو ركن تتكوم فيه طائرات ورقية من كافة المقاسات والألوان . بعضها لم يكتمل تصنيعه بعد . انها هواية كريم المفضلة ، منذ عدة أشهر ، وهو يصنع طائرات ورقية يبيعها إلى تاجرحلوى واخشاب شيش– والذى يبيعها بدوره إلى زبائنه الأطفال– فى حانوته بالشارع المجاور . فى زمن الطائرات الحقيقية . وجد كريم أنه من الرائع أن يرد بسرعة على تقدم العالم المنحوس المصاب بالهذيان لكل ماهو إلى . فبدأ يصنع طائرات ورقية ، كألعاب رائعة وتافهة ، فيهلل بفرحة غامرة حين يرى فى السماء هذه الأشياء الخفيفة الهادئة التى تسخر من المركبات الثقيلة الطائرة ، والآلات الضخمة التى تفتقد الشاعرية .

تأمل الركام لحظة . ثم أخرج واحدة ، لا تزال فى حالة هيكلية . أفرع من البوص المقصوص مثبت فى وسطها بواسطة خيوط تصنيع طائرة ورقية عملاقة ، أمسك مقصا ، وبعض لفائف من الأوراق الملونة ، وطبق فى داخله تمتزج المياه بالدقيق كى يحصل على لزق ثابت . عاد إلى السطح ومعه العديد من الأدوات ، ووضع فوق الأرض الصلبة هيكل الطائرة الورقية . انحنى . وبدأ فى العمل بنفس الجدية والانهماك كأنه عالم يبنى صاروخا يستطيع السفر إلى القمر .

وبينما هو غارق فى عمله ، لم ينتبه كريم إلى تطفل شخص فوق السطح . وقف وقد بدا مثيرا للرثاء أمام السلم ، يحاول بلا جدوى أن

يلتقط أنفاسه . يحمل هذا الشخص الشاحب واللاهث ، الذى فى الخمسينات من عمره ملفا تحت ذراعه ويمسك بيده مظلة مغلقة ، استند عليها وهو يترنح . راح يلهث للحظة ، ثم هزته دفعة من السعال فشلت فى خنقه مرات عديدة ، رفع كريم رأسه على أثر سماعه السعال الأجش وراح ينظر فى غباء وخلسة . وهذا الرجل ينظر اليه وكأنه وجد شخصا يعرفه وسط حشد من الناس ، دون أن يسبب له أى متعة بالمرة .

– هل أنت كريم؟

– أجل . أنا . ماذا هناك؟

قال الرجل: شرطة . أنا مكلف بمهمة خاصة بك .

أومأ كريم بحركة واحدة دون أن يبعد عينيه عن الرجل . انه شرطى حقيقى فى هذا القيظ يرتدى ملابسه وكأنه وسط بـــرودة شتـــاء قارس : بـــدلة صوفية سميكة داكنة ، وتلفيعة من الصوف ملفوفة حول الرقبة . بدا وجهه النحيف مهيبا ومهموما ، ولكنه غير جاف . يكسوه من التجاعيد يمـــكن أن تميـــزها لدى بعض المرضى المحكوم عليهم بالموت قبل الأوان . بدا على شفا الانهيار . فقد شكلت الأدوار الستة التى اضطر أن يصعدها خطرا حقيقيا بالنسبة لسنه . لقد منعته الشمس العمياء التى غمرت السطح من الرؤية جيدا . . فتح مظلته ، وتحت ظلها تصفح الشاب طويلا . هذا الموقف المضحك كان له الأثر المبهج على كريم ، فتلاشت مخاوفه ثم تقدم نحو الشرطى . وسأله:

– فيم تتعلق هذه المهمة؟

– هل يمكن أن أدخل غرفتك . أود أن أجلس فلدى ما أقوله .

قال كريم: انه لشرف . تفضل .

أغلق الشرطى مظلته ودخل الغرفة يتبعه كريم وهو يتساءل عن الاسباب التى وراء هذه المهمة ، فمنذ زمن طويل لم يتعامل مع الشرطة . لعلهم عرفوا بسرعة انه صاحب الشحاذ المزيف ، انه أمر غير قابل للنقاش . ترك نفسه للقدر . انه لأمر معقول ، بدا مظهر الشرطى المصاب بالربو وداء الصدر كأنه فى حالة أفضل .

لم يفقد كريم السلوك المهذب:

– هل تتفضل سعادتك وتجلس! هل أجرؤ ان أعتذر لك عن فوضى المكان . كدت أن أرتبه .

– لا تهتم . فليست هذه زيارة ضيافة .

جلس الشرطى ، وهو لا يزال يلهث . ولكن بشكل ضعيف ، أمسك كريم سترته ، وراح يتذكر أنه كان عليه أن يتصرف بوقار أمام ممثل القانون . هل عليه أن يموت ويختنق بالربو ، فمنذ أن تعرف على هيكل . أو منذ ان بدت له الحياة فى ثوب ساخر مليئة بالغضب الصاخب . اعتزل كريم وأقام فى بيته بكل كرامة بعيدا عن رعاع البشر الذين تمسكو بقيود السلطة . عليه ان يتصرف كغبى . وأن يبدو أكثر غباء

منهم . أنها الطريقة الوحيدة لانتباذهم . لقد أخبره أن الكرامة ليس لها ثمن سوى بين البشر الاسوياء الذين يكنون فيما بينهم مشاعر احترام متبادلة . ويعلمون أن إحتفاء المرء بكرامته أمام شرطى أو ممثل للسلطة ، لا يعنى أبدا شيئا . هكذا حدثه هيكل وهو يحاول أن يحتفظ بكرامته أمام كلب مسعور . فالسلوك الذكى الوحيد أمام كلب مسعور . هو الهرب . أما بالنسبة للعديد من البشر ، فى هذا العالم المتسع ، فعليهم أن يتصرفوا بكرامة . لأنهم مختلفون .

زرر كريم سترته . ثم جلس وقال بمظهر شخص يتوقع حديثا على جانب كبير من الأهمية:

– هأنا أسمعك .

فتح الشرطى الغريب ملفه ، وسحب ورقة ، وبدا كأنه يتفحصها:

– هل تسكن هنا منذ وقت طويل؟

اسبوع تقريبا . كما ترى لقد أقمت هنا وأنوى تأثيث هذه الغرفة بطريقة حديثة . أنا فى انتظار نجار ولكن لسوء الحظ ، لقد ماتت زوجته لتوها ، وتركنى هكذا . سوف أستدعى نجارا آخر .

أطلق الشرطى تنهيدة ، وهز رأسه . وكأن من الصعب عليه أن يهدم هذا الوهم الجميل ، وقال:

– من الأفضل أن تهجر هذا المسكن .

– لماذا؟

– لأنك لا يمكنك أن تستمر فى السكن هنا . فهذا ممنوع .

– كيف ممنوع؟

انكمشت عينا الشرطى . ونظر إلى كريم وكأنه سيبوح له بسر مرعب:

– هل تعرف يا عزيزى أن هذه العمارة تطل على طريق حيوى!

رغم أن هذا الاعلان قد أثار طبيعته الساخرة . فإن كريم ظل رابط الجأش لم ترتسم أى ابتسامة على وجهه . بل على العكس . بدا متأثرا بشدة لما سمعه وبلهجة نادمة ، لمواطن مهتم بشئون البلاد رد:

– الكورنيش طريق حيوى! لم أكن أعرف ، سعادتك! بشرفى ، لم أكن أعرف .

– حسنا ، هأنا أعرفك ، إعرف أن الكورنيش طريق حيوى من الطراز الأول ويسلك هذا الطريق يوميا رجال سياسة ، وسفراء الدول الأجنبية . وعسكريون مهمون .

قال كريم: حقا . ولكننى لا أدرى ما علاقتى بهذا؟

– الا ترى ذلك حقا؟

– لا ، والله! لا أرى . أحاول أن أجتهد ولا أعرف .

– إذن سأضطر أن أعلمك . فأنت رجل خطير .

– أنا! ماذا يمكننى؟

أضاف الشرطى: لا شىء الآن . لا يمنع أنك فى القائمة السوداء . ونحن مهتمون بك . أليس كذلك؟

– فعلا . ولا انكره . ولكن ذلك كان من سنوات ، ابان الحكومة القديمة .

هز الشرطى رأسه من جديد . تظاهر أنه يمتص شفتيه . وكأن مثل هذه الأمور أقل غباء حقا ، كم يتسم هؤلاء الثوار بسذاجة واضحة . قال:

– لو لم تكن تحب الحكومة القديمة . فلا يوجد سبب كى تحب الحكومة الحالية . فنحن نعرف أصحاب الرءوس العنيدة من أمثالك .

أثارت هذه التصريحات المعلنة ضمنيا دهشته ، وأصابته بالصمت للحظة ، فلماذا يرد على هذا؟ لم يترك نفسه لهذا الشرطى المسكين كى ينهكه بأموره الخارقة . عليه إذن أن يمسك زمام الأمور .

أحتج بحسن نية:

– أى خطأ ، سعادتك! أنا لا أحب الحكومة! يجب أن يكون المرء أعمى حتى لا يحبها . أنظر إلى . هل أنا أعمى؟ أقول لك بكل بساطة أننى

أعتبر الحكومة الحالية مثل أبى . أى دليل يمكن أن أقدمه لك لأؤكد احترامى لها؟

– بالمناسبة . أين أبوك؟

رد كريم: لقد مات ، فأنا يتيم

ورغم أن هذه المحاولة بدت له يائسة ، ورغم أنه يريد أن يكشف دوره كثائر تائب . فإن كريم وجد نفسه على وشك البكاء . وضع جبهته بين يديه . وبدأ فى النهنهة وهو يجهش ، ينطق بكلمات مكسورة بأنه قد جنى عليه بأسه وأحزانه منذ طفولته الرقيقة . لكن هذا المجهود الذى بذله لم يقنع الشرطى تماما ، بدا مهزوزا . فظل صامتا ، منتظرا أن يخفف الألم الذى جاء فى غير وقته ، ولكن كريم صدمه بضربة قدرية حين كلمه عن وامه المسكينة التى ماتت أثر اصابتها بمرض خطير (يبدو انه كان "ربو") والذى وصف أعراضه كأنه طبيب متخصص .

وتبعا لهذا الوصف ، اكتست عينا الشرطى بظل من الحزن ، وبدأت ملامحه تمتلئ بتعبيرات حزينة مكتئبة لقد ظل يمارس مهنته ثلاثين عاما ولم يعد لديه ما يتعلمه عن كوارث القدر . لقد ألقت به شكوكه عن جدوى الاشياء فى الدرك الاسفل ، فى مهنة يكون الجنون والقبح هما الفضيلتان الوحيدتان ، فضلا عن مشاعر انسانية عميقة تجمعه مع اخوانه البشر . هذا الشاب يمكن أن يكون ابنه . فقد جرب المعاناة المزيفة والحقيقية:

– مم تعيش؟ هل تعمل؟

رد كريم: طبعا أنا صنايعى .

– ماذا تصنع؟

– أصنع طائرات ورقية .

– أنت تسخر منى .

– كيف اجرؤ على ذلك ، يا صاحب السعادة! هذه هى الحقيقة خالصة . ليس هذا شيئا غريبا . سوف أريك نماذج مختلفة ثم رفعهما عاليا ، كى يمكن للشرطى أن يعجب بها:

– ها هى . أنظر إلى هذه الطائرات الورقية . فأنا الذى صنعتها . لا يوجد لها مثيل . حتى فى الخارج . لقد طُلبت منى فى انحاء العالم . وسوف أضطر قريبا إلى طلب مساعدة .

تأمل الشرطى– الذى لم يشأ أن يصدق هذه القصة– الطائرتين الورقيتين التى لوح بهما أمام عينيه كأشياء خارجة لتوها من أحلام . ورغم رغبته أن يكتب محضرا مفصلا . فانه رأى استحالة أن يشير فيه إلى صناعة الطائرات الورقية كعمل شريف . ومع ذلك تساءل عن هذه الطائرات . هناك بعض الناس يصنعونها . وهى ليست نتاج الطبيعة . ولكن كيف يبلغ رؤساءه أن ثوريا قديما ، يملك روح التدمير انتهى أمره إلى هذا النوع من العمل . دون أن يثير أى شبهة؟ قال:

– ليس من الجدية أن أذكر هذا فى محضرى . وإلا بدوت كأننى أسخر من السلطات .

ومع ذلك ، فليس هناك شيء غير ذلك ، إنه عمل متواضع بالتأكيد . ولكنه يبعث البهجة فى قلوب الأطفال . آلاف الأطفال الذين يتسلون بهذه الطائرات الورقية . كيف يمكنك أن تقترب منى . سعادتك ، وأن تجعلنى أهتم بأن أصنع بهجة الأطفال؟ ليس الأطفال سوى ابطال المستقبل . وأنا أعرف أنه بالنسبة لصول قديم فإن هذه الطائرات الورقية تعد من اعمال الطفولة . عندما نتعمق فى المشكلة ، سنلاحظ أن الأطفال الذين يستخدمونها ينشغلون فى هذه الرياضة السلمية ، إنه عمل وطنى . وظاهرة اجتماعية صحية ستصنع منهم مواطنين صالحين قريبا . عليهم أن يحترموا القانون ، لعلك أدركت بسهولة اننى أعمل لمصلحة الوطن .

هذه الخطبة الطويلة سببت الكثير من الألم للشرطى . فقد أدهشه هذا الشاب كثيرا . فلو لم يكن ثوريا . فهو على الأقل مجنون . فكر الشرطى فى محضره . فقد أدخله الشاب فى متاعب لا حصر لها . قال كريم بعد صمت: إذا سمحت لى . .

– تفضل .

– هل لديك أطفال؟

ها هو يدخله فى مسائل خاصة . الآن ، هل سوف يسأله ان كانت زوجته جميلة أم لا؟ .

– نعم لدىّ أطفال . ليحفظك الله!

أى أعمار يبلغون؟

– الكبير فى الثالثة عشرة .

– يا للصدفة العجيبة! هل تسمح لى أن اقدم له احدى الطائرات سيكون هذا بالنسبة لى مصدر شرف وفرحة .

قاوم الشرطى ، ولكن بكل أدب ، وبلا مباهاة:

– إذا لم أكن قد تجاوزت الحد؟ فهذه محاولة لرشوة موظف سوفأسجل هذا فى محضرى .

هتف كريم: رشوة ! لتحطمنى السماء ! لقد أهنت سعادتك مشاعرى . صدقنى أنا أحب الأطفال كثيرا . لدرجة أننى عندما أرى أحدهم تنذرف الدموع من عينى . لا أفهم كيف يمكن أن تسمى هديتى رشوة لموظف ، إنها بالنسبة لى شئ عزيز ، ومشاعر نبيلة ونقية . سوف أكون حزينا لو رفضت هديتى المتواضعة ومن جديد أوشك على البكاء .

وخضعت مشاعر الشرطى لاختبار قوى . فكل ما يتعلق بهذه القضية بدا مبهما ، بعيدا عن الروتين المألوف . فهل هذا الشاب مخلص؟ لفد كاد الشرطى أن يقتنع بهذا . فلو كان واحدا من الثوار المتكابرين المتصلبين المتطرفين ما تكلم بهذه اللغة . وما ذرف الدوع . انه واثق انه لم

يخدع . الغريب انه يعرف لماذا سبب له الحزن ، ماذا سوف يصبح العالم لو شرع الثوار فى التوبة ، والمغفرة؟ بدا له أن نورا أضاء فى ماكن ما .

وضع كريم احدى الطائرتين فوق الكومة وظل يمد الأخرى إلى الشرطى فى توسل . وقد اكتسى وجهه بتعبير من المعاناة النفسية المثيرة للرثاء .

أصابت الطبيعة الرحيمة الشرطى بالحرج . أحس أنه قد ارتكب حماقة وأنه انسان أقل تحضرا ، عليه الا يرفض هدية مقدمة له فى مثل هذه الظروف .

ربما أن بساطة الهدية تدفعه إلى قبولها . سعل وهو يجلى صوته:

– ليكن . اتفقنا ، ولكن سوف آخذ الصغيرة .

رد كريم: أنا فى خدمتك . فقد غسلت عارى .

وبينما يمد الشرطى ذراعه ، ، دعاه للاختيار ، وبعد لحظة من تردد الشرطى . جاء اختياره على الطائرة الورقية الصفراء ، واضعا فى حسبانه مشكلة المواصلات . فقد رأى نفسه يجــرجر هذه اللعــبة الضخمة حتى منزله . لم يخف ارتبــاكه . قال كريم:

– بكل امتنان ، آمل أن يتسلى الأطفال جيدا .

قال الشرطى وهو يتجه نحو الباب: أشكرك باسمهم ، علىّ الآن أن أنهى محضرى . سوف يتم استدعاؤك قريبا .

رد كريم: لقد اسعدتنى زيارتك . صدقنى ، أنا ممتن كثيرا .

وخرج مع الشرطى إلى السطح . ثم اصطحبه إلى باب السلم . وهو يقدم له عشرات التحيات والانحناءات . وقد احتفظ بسلوكه الجاد والوقور لدقائق . ثم فجأة انطلق فى ضحكة مجلجلة .

لم يستطع أن يوقف نفسه عن الضحك . فقد أصبح الكورنيش طريقا حيويا! آه أيها الأقذار الأنجاس ، انهم يملكون طريقا حيويا الآن . يا له من افتراض! كل هذا كى يعلى من أهميته . وكى يجعله يترك المترل لسبب مجنون! نفسه تنفجر ، . ولن يعطيهم هذه المتعة . أولا . كان عليه أن يتصرف مع هذا الشرطى قبل أن يخط محضره . اعتقد كريم أنه قد سيطر عليه تماما ، ولكنه لن يعرف أبدا كيف انتهى بأن وافق أن يأخذ الطائرة الورقية . فلماذا لا يوافق على شىء آخر؟ قرر كريم أن ينقل كل الحكاية إلى خالد عمر . وأن يساومه . فهو الوحيد لأسباب عديدة ، الذى يملك أدواته يتصل بالشرطة أو برؤسائهم ويمكن لخالد عمر أن يقدم أحسن الرشاوى مغلفة للموظفين . جمع كريم عدة شغله وأعادها إلى الحجرة . ثم ارتدى ملابسه على عجالة ، فقد حان وقت زيارة التاجر .

عندما وجد نفسه خارج المترل . وقف يفكر لحظة وهو يتأمل الكورنيش بنظرات ماكرة ، واستبدت به رغبة عارمة أن يتبول على الطريق الحيوى .

(3)

بدأ خالد عمر – وهو شخص أمى – فى التجارة فى مكان ينهى فيه التجار عادة عملهم: السجن . حدث ذلك منذ بضع سنوات . لم يكن سوى رجل حاف ، يقرصه الجوع ، وينام على الرصيف . كان يعيش على النهب والتسول ، ولكن العناية الالهية ادخرت له مستقبلا زاهرا . . لقد قبض عليه فى حالة تلبس وهو يسرق حافظة أحد المارة ، وحكم عليه بالسجن ثمانية عشر شهرا مع التنفيذ ، هذه الظروف البائسة دفعت به إلى الثروة . فخلف جدران السجن ولدت موهبته وانطلقت . فتخلص من وساوس قلة الطعام ، ولم يعد يشكو ندرة الرفاق أحبطت روحه ، لكنها ظلت متيقظة . ارتبط بمجموعة من الأشياء اتاحت له الفرصة . نظر حول واندهش لكل هذه الظواهر الاقتصادية التى فرضت نفسها على مجتمع حى فى آنية مغلقة . فالطريق القذر الذى ادى به إلى السجن قد مس شغاف قلبه ولكنه لم يشارك ابدا فيه . فراح يشترى بالأجل . ويبيع بسعر أعلى مما اشترى . أدهشته هذه العملية . . انها أول ربح فى حياته . لا يبذل فيه مجهودا . وبعد وقت قصير أصبح مضاربا حذرا واكتشف أبعادا غريبة لقوانين العرض والطلب . وفى الأشهر الستة الأولى سيطر على كل المقدرات ، فرض مسألة السعر كما يشاء فاستولى على كل أنواع المؤن . والسجائر ، والمخدرات . وأحيانا النساء .

والسجانين ، والمجرمين . فارضا سلطته دون أى عجرفة . بمعنى أنه توصل أن يجعل السجن مصدرا للاقتصاد القومى .

وعند خروجه من السجن ، كان ثريا يملك النقود . وسرعان ما ارتدى البدل . والشرابات ، وقص شعره بما يناسب طربوشه . ثم أجر محلا . ودخل فى العديد من العمليات القانونية – وعمليات أخرى ليست سوى بين بين – ولازمه حظ طيب . إنه الآن يملك عمارات عديدة ، وأراضى واسعة فى الناطق الأكثر خصوبة . واستكمل عمله دون أن يبذل أى جهد ، تمثلت كل أنشطته فى محادثات تليفونية مع ناس لم يرهم قط . ورغم نجاحه فقد احتفظ وراء ثرائه الخارجى واناقته المنفرة باسلوب رجل له نزواته ، ولغته الشعبية . فلم تربطه مودة سوى مع المتشردين ، ولم يكن يخرج إلا فى صحبة العاطلين الذين لا عمل لهم وأمامهم متسع من الوقت . وفتحت الطريقة التى كسب بها كل نقوده عينيه على خداع هذا العالم . وفهم أن ماحدث له لا يمكن له مكان الا بين المجانين واللصوص .

كان مكتبه صورة لروحه الخشنة ، يقع فى حارة من حى الجمرك . وكان قد تخلص من كل أوراقه القديمة وكتبه الرخيصة واشياء أخرى سخيفة من هذا النوع . المخصصة لجلب الأعمال والتى تعطيه مظهرا مهيبا . لم ير هناك سوى مائدة يضع عليها تليفونا من طراز عتيق . ومقعدين كبيرين من الخوص ، وفى ركن ، على الحائط توجد بعض الخزائن الخشبية المغطاة بالأتربة .

عندما ظهر كريم ، فى الظهيرة ، فى مكتب خالد عمر . كان يتكلم فى الهاتف . حيا زائره بيده الاخرى ، وافهمه بحركة إيمائية أن محادثته تكاد أن تنتهى . جلس كريم فوق أحد المقاعد المصنوعة من الخوص وقد أعجب بالطريقة التى يتبعها خالد عمر فى أعماله فقد غاص فى مقعده الدوار ، كان التاجر يستمع إلى محدثه الذى لا يراه فيؤكد المحادثة . ويهز رأسه أو ينطق بكلمة جافة ، وأحيانا يطلق تنهيدة كأنه يود أن يجعل الآخر يحس أنه قد ضحى بوقت ثمين من أجله ، لم تكن هناك أى أوراق ، ولا قلم فوق المائدة . فكل شئ مسجل فى الدماغ .

وضع خالد عمر السماعة . وغاص فى مقعده وانفجر فى ضحكة حادة بدت كأنها قادمة من امعائه ، إنها ضحكة حادة بدت كأنها قادمة من امعائه ، إنها ضحكة حيوان مبتهج ، ضحكة بلا سبب ، وتلقائية تماما: كيف حالك يا صديقى؟ هل تعرف ماذا طلب منى هذا الشخص فى التليفون؟

قال كريم: لا .

– حسن ، طلب ان أحضر له نمرا .

– نمر؟ بالتأكيد انه يريد ان يطلقه على حماته . إنها نكته ظريفة .

– أبدا ، فالأمر بالغ الجدية .

– لم تخبرنى أن لديك نمرا للبيع .

– ولم لا . سوف أجد له واحدا .

وأمسك بيده – ذات الأصابع المرصعة بالخواتم – مبسم النرجيلة الضخمة المصنوعة من العنبر والموضوعة قريبا منه فوق الأرض ودسه فى شفتيه . ثم شد نفسا وأطلق من خياشيمه سحابا من الدخان الكثيف ، وعلق:

– انت تعرف ، يا صديقى الشاب ، أنه قد جاء على وقت كنت أبحث فيه عن كسره خبز فلا أجده . كنت أحس أن الخبز غير موجود إلا فى مخيلتى . وأن اتكلم فى التليفون كى يحضروا لى نمرا طليقا أو فى قفص . أليست هذه معجزة؟

ومرة أخرى ، انطلق ضاحكا . هتف كريم:

– أمر غريب؟

قال عمر: انه امر بسيط ، انه يتعلق بالدخول فى نفس الدائرة . كل مايرغبه الانسان هو أن يمتلك كميات خيالية مخزنة فى مكان ما ، ومحفوظ جيدا . هل رأيت أبدا أطنان الارز؟ أنا لا . ومع ذلك بعت آلاف الاطنان . هذا هو غموض التجارة . لانرى سيئا . كل شئ يدور فى الكواليس ، أحس أننى أبيع الريح . وهذا شئ يبعث على التسلية .

– أنت رجل مادى ، يا أخ خالد! اريد أن اقبلك! عندما أفكر انى لن أستطيع التعرف عليك! .

نظر خالد عمر إلى زائره بفرحة ظاهرة . فالصداقة التى جمعته بهذا الشاب تعود إلى اقامته فى السجن ، لم يكن كريم قد تعدى العشرين فى تلك الآونة . فقد تم القبض عليه بصفته عضوا سياسيا خطيرا . وانحشر مع الخارجين على القانون العام . وقد كان اتصالهما الأول بالغ الصعوبة ، فعندما علم تاجرالمستقبل من كريم أنه موجود فى السجن لاسباب سياسية ، لم يستطع أن يمنع نفسه من معاملته كغبى مسكين . وان يفهم كيف يمكن أن يفقد المرء حريته لدافع برئ أو لسبب سياسى . فحسب رؤيته فهذا غباء جميل ، ومن ناحية أخرى ، فلم يكن عليه سوى أن يقدم على سجنه . الذى خاطر من أجله بحريته بالتأكيد ، زلكن هذا أمر غير ملموس قياسيا إلى حافظة مملوءة بالأوراق المالية . أيضا فإن شخصا من طراز كريم يبدو له مضحكا ، فهؤلاء المساجين السياسيون ، يتصرفون كشهداء ويثيرون اشمئزازه ، إنتابته احيانا مشاعر اخوية تجاه هذا الشاب المثالى . لذا ساعده طوال فترة اعتقاله .

– هل يمكن أن أقدم لك شيئا؟ قهوة!

قال كريم: أجل سوف اتناول قهوة .

قام خالد عمر واستدار حول المكتب وذهب ليفتح النافذة ، . دخلت الضوضاء فجأة من الحارة حيث يوجد سوق للفاكهة والخضار . غزت الغرفة صيحات الباعة لذين يمتدحون بضائعهم ، وهزتها كأنها زلزال ، سيطر على صوته الأجش ، صاح خالد موجها كلامه إلى صاحب المقهى المقامة على الناحية الأخرى من الحارة:

– اثنان قهوة يا عشور!

رد صدى الصوت فى المقهى: اثنان قهوة!

اغلق خالد عمر النافذة بسرعة ، وعاد ليجلس خلف مكتبه . وقد بدا منتشيا داخليا ، كأنه قد تذكر لتوه قصة غريبة:

– أهنئك على شحاذك المزيف . فقد كان انتفاضة حقيقية هذا الصباح عندما اكتشفته الشرطة .

– أخبرنى: هل يتكلمون عنه فى المدينة؟

– بدأت الفضيحة أولا بأن شرطيا قد كسر رقبة شحاذ عجوز ، واغتنم الناس . الفرصة لكن الأمر سرعان ما انتهى حين فهم الناس الملهاة بدت الشرطة مرتبكة . وطلبت من الصحف التزام الصمت ازاء هذا الحادث . تصورت أن بعض الشحاذين الراغبين فى الاحتجاج على أوامر المحافظ قد دبروا هذا .

– ليتخيلوا ما يشاؤن . فلم ننته من الضحك بعد . اسمع ، لقد جئت كى أخبرك انى دبرت لك موعدا مع هيكل . سيكون هذا المساء . حوالى الثامنة فى شرفة مقهى "لوجلوب" ، كلفنى أن أخبرك أنه سعيد بمعرفتك .

قال خالد عمر بصوت خائر ومرتعد قليلا : أنت تعرف أننى تمنيت هذا اللقاء منذ أمد طويل . فكل ما حدثتنى به عنه الهمنى

مشاعر فياضة . أنا أحبه كأخ . وعليه أن يعرف أنه يمكنه أن يعتمد عليّ فى كل ما يريد أن يفعله فثروتى الطائلة تحت أمره .

– لقد أخبرته بهذا . وهو يكن لك مشاعر أخوية . انه يعرفك أفضل مما أعرفك أنا . لقد كلمنى عنك دوما كرجل يملك قلبا كبيرا . كل هذا دون أن يراك . أنا متأكد أنه لن يخيب أمله .

– ما هى تصوراته؟ ألم يقل لك شيئا؟

صرح كريم: لا ، اعتقد أنه يريد أن يكلمك عنها أولا ، فهو فى حاجة لمساعداتك ، هذا المساء . بلا شك سوف يضعك فى إطار خططه .

– هل ستستمر دوما فى إرسال خطابات القراء إلى الصحف ، انها فكرة شيطانية ، وأنا مشدودة بها .

كان تملق الصحف فيما يتعلق بالمحافظة قد تجاوز كل ما يحدث حتى الآن فى إطار الحقارة والخسة . فبصوت الصحافة تغنى المدينة بأكملها فى مدح الجوع . ولا يُسمع أحد يتكلم فى أى مكان عن مبادراتها أو عن رغبتها فى هزيمة الجوع ، حتى مميزات الجنرال السابق قد صيغت بشكل واضح ، وكأن المدينة ميدان معركة حقق فيه المحافظ نصرا حربيا بينا . هذا الموقف الذى نجح هيكل فى تفجيره . كانت الحيلة تتضمن متابعة الحركة ثم تجاوز غبائها لدى حاملى المباخر . بأن يرسل إناس من معارفه خطابات إلى الصحف ، مليئة بالتملق حول الأنشطة الحكومية التى لا يتردد أحد إلا فى نشرها . وقد آمنوا بأن كل هذا من أجل مجد أسيادهم.

قال كريم:

– ليس الآن . سوف نبدأ من أعلى مكان لمنع الصحف من نشر هذه الرسائل . فآخر حكايات قمنا بإرسالها كانت بلا صدى . يبدو اننا تجاوزنا الحد ، هل تذكر ما كتبته بنفسى ، وأنا أقارن بين المحافظ والاسكندر الاكبر .

– أذكرك ذلك جيدا . فقد قرأته عليّ . لقد كان خطابا شهيرا!

– حسنا ، هذا الخطاب لا يزال يعمل به فى بعض الاوساط كوثيقة فريدة . فالصحيفة التى نشرته زاد توزيعها فى هذا اليوم بضع مئات من النسخ ، صدقنى ، لقد اعتبرت أفضل نموذج لخدم السلطة . وعلى خدم الحكومة أن يتعلموا منه .

قال خالد عمر: ولذا ، فكم أنا أسف لأننى لا أعرف القراءة . سوف أكون سعيدا فى كل لحظة .

طُرق على الباب . ودخل الغرفة صبى على أطراف قدميه ، يبدو قذرا وأشعث ، ويحمل صينية عليها فنجانان من القهوة .

– القهوة ياعمر بيه .

قال التاجر: ضعها هنا .

وضع الصبى الصينية . ثم ألقى نظرة خبيثة على الرجلين . وما لبث أن هرول وهو يعرج خفيفا . قال كريم وهو يمسك فنجانه: لقد حدثت لى حكاية بشعة .

– ماذا؟ لقد اقلقتنى؟

– آه . لم تكن سوى حكاية سخيفة .

كان عليه أن يطلق ضحكة مدوية .

حكى لخالد عمر عن زيارة الشرطى المصاب بالربو ومزاعمه أن الكورنيش طريق حيوى .

كانت تلك فرصة لخالد عمر أن يسمع ضحكته المجلجلة . قال عندما هدأ:

– المساكين . إنهم مدهشون ، قل لى يا رجل . هل ألفت هذه الحكاية؟

– لا . بشرفى ، وهل أنا بقادر على تأليف شىء كهذا . علىّ أن أخبرك أن الأمر تطلب منى جهدا شديدا حتى لا أنفجر فى الضحك عندما نطق بهذه الكلمات ، فى الحقيقة كان رجلا طيبا ، انه نوع من رجال الشرطة الطيبين ، وكى ينجح فى هذه المهنة عليه أن يعيش لسنوات على الكفاف . فهو عجوز ولماح . ثم اننى حاولت أن ارشوه .

– بأى وسيلة؟

– سألته أن كان لديه ابناء . وعندما رد بالايجاب . قدمت له طائرة ورقية من أجلهم . لم يوافق سوى على طائرة صغيرة . اختارها بنفسه . ثم ذهب وهو يقول لى انى سأكون مدينا لك طول العمر .

هتف عمر: بارك الله اليوم الذى عرفتك فيه . ماذا يمكن أن أفعل كى أخرجك من هذه العثرة؟

– حسنا ، أعتقد أنك إذا استطعت أن تجعله يحصل على بضع أقات من السكر . فسيكتب محضرا لصالحى .

– سأغرقه بالسكر . اذا كان هذا يسعدك . هل من شىء آخر؟

– لا شىء ، شكرا .

– بل أنا الذى أشكرك . . لقد غمرت قلبى بالفرح لأنك ستعرفنى على زميلك هيكل سأكون مدينا لك ما حييت .

ورغم أن خالد عمر لم يبرهن قط على ما يحمله من مودة . فإن تعجله فى التعرف على هيكل جعله يبدو وكأنه شاعر عاشق متيم سيقابل ملهمته . أحس بنوع من البهجة الداخلية العميقة ، أكثر من أى احساس بالشهوة . إنه رجل يتخيل نفسه يحارب التعنت والعنف من خلال مدحه للجلاد ، عليه الآن أن يفعل شيئا غريبا! فقد حلم خالد عمر بمثل هذا الرجل من أمد طويل .

(4)

تلفع بروب دى شامبر قرمزى ، ترك هيكل اريكته ، للمرة العاشرة على الاقل ، واقترب من النافذة ، ورغم انه فى قمة العصبية ، انه احتفظ بمظهر هادىء وبارد الاعصاب . تحرك بكل خيلاء كأنه قد تربى فى القصور الملكية . كشفت النظرة الباردة ، التى خلت من المشاعر عن تصميمه أن يترك نفسه للقدر ، فمنذ لحظة ، فقد الأمل فى أن يظهر خادمه "سرى" . هذا الذى يمكنه أن يعود غدا أو خلال أسبوع ، لا أحد يعرف متى ، حتى هيكل نفسه . لقد أرسله بعد الظهيرة ، كى يذهب ببدلته الوحيدة إلى كواء الحى . ولم يعد حتى الآن ، فى السادسة مساء ، أغرق هيكل غياب خادمه فى ألم مرعب ، فقد راح يتحرك فى شقته وكأنه يتأهب للخروج . لقد بليت كل ملابسه الأخرى ، وبعيدا عن الجدال ، فهيكل حريص أن يرتدى ملابسه الانيقة ، وتلك ضرورة جمالية تبدو عملا طفوليا ، وذلك من أجل بعض الاعمال الوظيفية . لأن الشاب كريم حاول أن يدبر مع السيد الكبير لقاء ذا مغزى ، فهيكل نفسه ليس صاحب ثروة ولا جاه اجتماعى ، ولكن الطريقة العجيبة التى يرتدى بها ملابسه والتى يمشى ويتكلم بها ليست سوى نتاجا لاجتهاد خاص يلازمه منذ ولادته وتبعا لطبيعته الراقية .

ابتعد عن النافذة دون أن يكتسى وجهه بأى مرارة . الرأس عالية ، وكأنه يتحدى مصيره . فـ "سرى" لن يعود مبكرا . لقد انطلق إلى

المجهول ومعه بدلة هيكل . هذه البدلة الابهة القديمة التى اشتراها منذ بضع سنوات . راح هيكل فى هذه اللحظة ، يتخيل نفسه عرضة لمغامرات ملفتة للنظر . فإسلوب السخرية الذى يتخذه لنفسه ، والاهتمام الزائد الذى يحمى به نفسه ضد أقل ذرة تراب ، يشكلان جزءا مهما من فراغه .

انها بدلة كاملة ، مصنوعة من قماش مستورد ، ذات ألوان داكنة وقورة ، فصلها أمهر الخياطين فى المدينة بحرفية بادية ، لذا فهيكل يرتديها دائما مما جعلته يحتفظ دائما بشكله الانيق ، آخذا فى الاعتبار ما بلغته من تقدم السن . فعندما اشتراها كانت تساوى مبلغا خياليا . انها تساوى ثمنها ، وهو يضفى عليها تميزا بالاضافة إلى وقاره الطبيعى ، فهذه البدلة التى تخطف الابصار تعطى لهيكل ملامح الشخص الموسر الأهل للثقة ، انه يرتاد أوساط المدينة الاكثر رقيا بصفته شابا ينتمى إلى الطبقة الموسرة . انه بلاشك ثرى . لم يفتقد قط معظم مصادره من خلال ايراد ضعيف يأتيه من قطعة ارض ورثها ، يكفيه كى يعيش بشكل متواضع . لا أحد يعرف مساحة هذه الأرض . لكن اساليبه تؤكد بشكل عام أنه رجل ثرى يملك العقارات . فى الثانية والثلاثين من العمر . لم يعمل ابدا . سعيد بارضه الصغيرة كثيرا . انها أفضل من العمل مع هذه الحثالة من اللصوص القتلة الذين ينتشرون فى الارض ، ومع هذا فإن هيكل لم يكن عاطلا ، فقد انشغل طيلة وقته بممارسة الجانب الساخر من الانشطة الانسانية ، فالعالم الهزلى يعجبه ، بمعنى أنه بالغ الحساسية لكشف أقل باردة من العقل ، فيما يراه أو يسمعه حوله . وأحيانا عندما يقرأ خبرا فى جريدة قريبا من

أفكاره ، لقد أصبح مريضا بالغيظ ، كلما رأى الجنون الغبى الدائم لبشر يمارسون فرحتهم . كان أشبه بطفل فى سيرك لا يكف عن رؤية الاشياء ممتعة بشكل عام .

نظر إلى المنبه الموضوع فوق الكومدينو . الساعة الآن السابعة . الها حدود الوقت الذى اتفق عليه مع خادمه ، عليه أن يخبره بالمصائب التى حلت ، ولكن فى إطار الصداقة ، فإن غضب هيكل لم يتضح ابدا . استمر فى التصرف بهدوء تام ، ولم تبرح الابتسامة شفتيه ، بدت عليه علامات خفيفة من الخشونى . اشعل سيجارته . ثم تمدد على الاريكة ، وقام للحظة كى يتجه إلى النافذة . لاشىء . لقد اعتاد مثل هذا الروتين . تخيل "سرى" مدهوسا تحت عجلات ترام ، وأحس بنوع من السعادة أمام هذا الخاطر ، فتأخير عودة خادمه سوف تمنعه من الخروج . سوف يخلف موعده مع خالد عمر . هذا الرجل الذى بدت علاقته به جدية ، ويجب أن تزداد قوة ، انه لمن المؤسف أن يخلف أول ميعاد مع التاجر ، فمنذ أن حدثه كريم عنه ، وهو يتكلم عن الظروف الاستثنائية التى تقوم عليها صداقتهما . لذا يرغب هيكل أن يتعرف عليه . لكنه يكاد أن يتأخر عن هذا اللقاء ، ربما عليه أن يتأكد من بعض المعلومات المؤثرة فى علم النفس الشخصى . فهو يرى أنه يمكنه أن يطلب مساعدته يوما بصفته شريكا له قيمته فى ممارسة سخريته الخاصة ، فحسب ثقة كريم فقد كان يعرف أن التاجر ماهر لكافة أشكال المؤامرات ذات النغزى السياسى . كما كان يكره السياسيين ويعتبرهم أكثر سفالة من الكلاب ، ليست الكلاب الحية . ولكن الكلاب الميتة العفنة . فالمؤامرة التى حدثه عنها لا يمكن أن تغريه

فقد حدثه أنه ليس فى نيته أن يستولى على السلطة ، ولا أن يلقى قنبلة على رأس المحافظ .

كان المحافظ هو أحد الوجوه المخادعة المعروفة . ربما الوجه الأكثر اثارة للضحك . تعرف هيكل على ذلك من شكله . فهو يراه دوما فى صالة الالعاب بكازينو البلدية محاطا بأقرب أعوانه . هؤلاء الذين يشكلون مجلسا من التابعين يحومون حوله كالخدم ، يبتسمون بمهابة وبلاهة . يهتفون بكل حماس . كان هيكل مغرما بغباء هذا الرجل الكبير ، الذى بلغ درجة هائلة من تصديق نفسه . كما أمكنه أن يبلغ مكانة من الغباء المأساوى . الذى يدفعه إلى الاحترام . يرى فيه كل غباء البشرية . كان هيكل يخاف أحيانا من المشاعر السادية الكامنة فى هذا الرجل ، بدا له أنه قد عين محافظا لارضاء شخصه ، ومبادراته ، وخطبه الجماهيرية ، لم يفكر سوى فى التملق وأن يقدم له مايشحذ حسه الانسانى . كأنه يشك أن شخصا فى المدينة يمكن أن تصدر منه بعض الحماقات كى يحس بالمتعة . لم يفتقد روحه كمهرج . كيف لم يستطع هيكل أن يحب رجلا مثل هذا؟ لا شك أن موته يعتبر إهانة . هذا ما لم يفهمه الثوار الاغبياء الذين يناضلونه بشكل علنى . فهم يعطونه الفرصة كى يأخذ الأمر بشكل جدى . وبالنسبة لهيكل ، فإن جريمة الأقوياء تعتبر شهادة . وهو ليس على عجالة أن يعلنها بأعلى صوته فى الشارع . بل حتى يمكن لطفل أن يلاحظها وحده .

توجه مرة أخرى نحو النافذة ، استوقفته حركة قادمة من الممر . فجأة زالت غضبته ضد خادمه مرة واحدة . أحس كأنه تخلص من الغضب . وبعد ثوان ، ظهر "سرى" حاملا بدلته الشهيرة على كتفه معلقة فى الشماعة:

– هل هكذا أستطيع الاعتماد هليك؟

بدا "سرى" أمام مخدومه بوجه متعب ذى تعبيرات ، منهمكة . ورغم أنه لم تبد عليه الدهشة فإنه بدا مسطولا تماما ، وفى حالة انعدام وزن ، العينان نصف مغمضتين . بدا نائما وغير واعيا لنفسه . وكأنه قد قطع حبله السرى مع الناس منذ لحظة ميلاده . مما أتاح له الهدوء والتفكير ، ودون أن يفتح عينيه ، قال بصوت هادئ:

– يا أمير . . انها ليست غلطتى ، بل الظروف . .

– أى ظروف ملعونة! أنا على موعد مهم ، وبسببك سوف ألغيه
.

قال "سرى" وهو يفتح عينيه الشاحبتين: آسف يا أمير . ولكن الظروف . .

قال هيكل: اسكت والا خنقتك . هيا . ضع البدلة على الأريكة .

لم يرد "سرى" ، ولكنه هز رأسه بضعف ، مؤكدا أنه لا يستحق مثل هذا الاستقبال ، وبحركات بطيئة ، وكأنه ينام ببطء ، وضع حمله

الثقيل فوق الأريكة ثم تمدد فى ركن من الغرفة وانتظر بكل قلق أن يوجه له سيده الكلام . لكن "هيكل" لم يعره انتباها ، وقف أمام مرآة الدولاب ، وبدأ فى إرتداء ملابسه ، سعيدا أن يبدو على هذا المنوال . انه هكذا دائما ، فمن المستحيل أن يصيبه كل هذا من خادمه ، فخلف شكله الخارجى الرائع يمتلك "سرى" مواهب لا نقاش فيها . لذا فهيكل يعتمد عليه فى المسائل المادية . يمكنه أن يبقى أسابيع عديدة دون أن يعطيه نقودا ، ويستمر "سرى" فى التمسك بوظيفته وكأن النقود لا وجود لها . فهناك ما يأكله فى وقت الراحة . اذن لماذا يتخلص منه . ظل هذا أمرا غامضا . شك هيكل فى أنه يسرق المأكولات وبعض السلع من عند تجار الحى . ينتظر من يوم لآخر أن يراه وقد انتهى به الأمر فى السجن . ومن وقت لآخر . يبدو "سرى" اشبه بلغز ، فهو لا يتكلم عن النقود كشىء ضرورى ، أو أنها يمكن أن تنفعه ، أعلن هذا وكأنه اكتشف فلسفة عديمة ، ولكن ما أهمية هذا التلميح الغامض لأزماته المالية ، فكل هذا هباء . لقد فهم هيكل أن خادمه على حافة الافلاس . فاقترح عليه القليل من المال . رفضها "سرى" زاعما أن الأمر غير ضرورى ، وأنه ليس على وشك الدمار . ألح هيكل ، وكأنه سوف يغضب . وأخيرا وافق "سرى" على المبلغ على مضض .

وعندما رأى مخدومه يدير له ظهره ، استكمل ارتداء ملابسه دون أن يلبى مطالبه ، لم يكف "سرى" عن هز رأسه . ولكنه شرع فى الهمهمة من بين أسنانه . بدا كأنه يرد اتهامات مدبرة ضده من أشخاص وهميين وأنه يضعه فى دائرة الشك ، تركه يزفر شكوته ، ثم قال بنفاد صبر:

– ماذا هناك أيضا؟

– هذا ليس عدلا ، يا أمير!

– ما هو الذى ليس عدلا؟ ألا يكفيك أن تراني متأخرا على موعدى؟ هل يجب أن استمع إلى نحيبك؟

– نعم ، يا أمير ، ليس عدلا . لا أستطيع أن أحتمل أن تغضب منى . لقد تأخرت فعلا ، ولكنها ليست غلطتى . يجب أن أنقذ شرف بيتنا!

– شرف بيتنا؟ ماذا تقول؟ ألا تتركنى فى حال . رح ونم فى المطبخ
.

– لا أرغب فى النوم . يجب أن أحكى لك القصة برمتها .

استدار هيكل وهو يزرر قميصه ليرقب خادمه ، إنه يعرف نوع القصص التى يحكيها "سرى" ، كانت فى أغلب الاوقات حكايات غامضة ، وطويلة الدرب ، وصعبة التصديق ، أما إذا كان لديه الصبر ليسمعها فإن هذا من قبيل المكافأة ، لانها دائما تتعلق بموقف طريف ، يسمعها هيكل بكل متعة ، ولكنه الآن على عجالة للذهاب لمقابلة خالد عمر . وسوف يرفض اغراءه قال:

– لا أريد أن أسمع شيئا .

– استحلفك بالله أن تسمعنى . . لم استطع أن أفعل غير ذلك ، أتود أن نفقد ماء وجهنا أمام الاجانب؟

– لا أفهم شيئا مما تقول ، لماذا نفقد ماء الوجه؟

بدا "سرى" وكأنه آثار فضول سيده ، وقد أتخذ هيئة قصاص شعبى . بمعنى أنه مال فوق الارض ، وراح يجلى صوته ، ثم تأهب لحكايته ، وألقى نظرته حيث يبدو ضجره الغامض . وبدأ:

– حسنا يا أمير ، فأنت تعرف . . أن دكان "صافى" الكواء مكان مفضل للعديد من نبلاء الحى ، يجلسون هناك طيلة النهار يتفلسفون ويدخنون ويشربون الشاى الاخضر . يجب أن أقول لك أنهم يعاملوننى باحترام فائق . إنهم ناس معروفون ويعلمون أننى أخدم فى مترلك .

سكت "سرى" وأغلق عينيه تماما . وكأنه افتقد انفاسه ، سأل هيكل:

– هه . . وبعد؟

رد "سرى": يا أمير . هذه العصرية ، أدركت أن الموقف خطير .

– أى موقف يا ابن الكلب!

– افهمنى يا أمير! لا يمكن أن أتركهم يعرفون أنه ليست لدينا سوى بدلة واحدة . ففى كل مرة يرونها هى نفسها . فبدأوا ينظرون إلى بإبتئاس وهم يهزون رءوسهم بمظهر المرتاب ، عندما اتكلم عن الرخاء

الذى نعيشه فى منزلنا ، باختصار ، لقد زاد الكلام علينا ، لذا ، رحت أبتدع حكاية كى أنفى هذا الموقف .

قال هيكل بغضب بارد: أكمل ، الآن أنا متأكد أنك مسطول .

– ليحفظنى الله! لا تغضب يا أمير! لقد أردت أن أكذب كل المزاعم حول موضوع ثروتنا ، وأن احكى لهم أنك تولى عناية لهذه البدلة ، رغم الدولاب الملئ بالملابس من كل الانواع لانها تذكرك بمغامرة عاطفية تركت قلبك ميتا . لقد جعلتهم يعتقدون أن ارتداء هذه البدلة قد تم فى لقائك الأول مع امرأة جميلة عشت معها أكبر قصة حب فى حياتك . . ولكن . . هه . . ! لقد ماتت المرأة . . فأصبت – سعادتك – بالاعياء . وظللت تحس بنوع من المشاعر لهذه البدلة وأنت تتذكرها . هذا كل شىء يا أمير! سوف تقول أنه أمر غير مهم .

– وهل كانت يلزمك كل هذا الوقت لقص هذه الغباءات؟

– لم يودوا أن يتركونى أذهب يا أمير ، أرادوا أن يعرفوا تفاصيل المغامرة ، مثلا: ما اسم المرأة ، وكيف ماتت ، وإذا كنت قد تزوجت . وكان علىّ أن أرد على أسئلتهم ، وفى النهاية . ذهبت بعد أن وعدتهم أن أحكى لهم تفاصيل أخرى فى المرة القادمة .

بـــدا كأنه نائم أكثر من ذى قبل . قام "سرى" وأمسك فرشة الملابس ، وراح يقف قريبا من هيكل . وقد اعتقد أن الأمر قد انتـــهى . وانتـــظر أن يهنئه سيـــده . ثم سأل:

– هه . . ألست غاضبا يا أمير؟

قال هيكل: حسنا . سوف أسامحك . رغم هذه القصة الغبية التى لم أسمعها . الآن ، لقد أهملت شئون البيت . وجعلتنى أتأخر عن موعد مهم .

أجاب "سرى" وهو لا يفتح عينيه ، وقد بدت عليه تباشير عنف: كيف أستطيع أن أهمل شئون البيت . لن أترك أحدا قط يشتمك يا أمير .

قال هيكل وقد أدك أن من الخطر أن يطول النقاش ، فالشرف هو الموضوع المفضل لخادمه:

– أعطنى منديلا .

توجه "سرى" إلى الكومدينو وهو يعرج من أجل أن يحضر منديلا أبيض نظيفا ، مد يده إلى سيده . الذى أمسكه وفحصه بدقة كى يتأكد أنه خال من أى أثر للتراب ، ثم دسه فى جيب سترته الداخلى . الآن . هو فى قمة اناقته ، نظر للمرة الأخيرة فى المرآة ، ووجد أن كل شىء بلغ درجة تجعله مؤهلا للخروج .

هذا الخروج الذى باغته قليلا لم يكن على مزاج "سرى" ، فقد أراد أن يناقش طويلا مع سيده ، وأن يبوح له ببعض الافكار العميقة النابعة من مخه "النعسان" ، لكنه أحس أنه لا يمكن أن ينال الرضاء لان هيكل قاطعه . ثم رمش بعينيه . وتساءل بصوت صافى:

– ماهى أوامرك يا سيدى؟

رد هيكل: لست فى حاجة لشىء . سأتعشى فى الخارج . يمكنك أن تنام .

واختفى فى الممر ، تاركا "سرى" فى غاية الدهشة .

(5)

كسى مُشعل المصابيح بحركته الماهرة ضوء الغروب بجو من الخيال الساحر ، راح يمارس عمله الليلى وهو ينتقل من مصباح لآخر . وكأنه بهلوان . تتبعه هيكل بعينيه لحظة . قبل أن يغوص فى الشارع . ما إن سار بضع خطوات حتى سمع همسا من رجل يبدو كأنه يختبئ خلف جذع شجرة . بوغت به . تقدم هيكل نحو الرجل المجهول وتفحص وجهه للحظة قبل أن يتعرف عليه . كان الرجل معرفة قديمة ، إنه شحاذه الشخصى منذ سنوات . ينتظره كل يوم أمام بابه . لم يره هيكل منذ أن طاردت شرطة المحافظ زملاءه عبر المدينة .

راحت أعضاء الرجل ترتجف ، وبدت عيناه "المعمتان" زائغتين أما أسماله فأكثر قذارة من العادة . همس بصوت خفيض:

– يساعد الله المؤمنين!

قال هيكل: نعم إنه عصر حزين . أين كنت منذ فترة؟

رد الرجل هامسا: كنت مختبئا . ماذا تريد أن أفعل؟ انهم يلقون بكل من يمسكونه فى السجن . هذا المحافظ من النوع العنيد .

– أعرف ، لكنه لن يستمر طويلا . سوف تنتهى الأمور إلى الأفضل .

– يسمع منك ربنا . أنا عطشان لكلمة أمل .

التفت حوله . وبدا كأنه يخشى أن يظهر أى شرطى فى أى لحظة .

أكمل:

– سوف تُخرب هذه المدينة . وسيضطر المساكين للاختباء . . ترى كيف سنعيش؟

علق هيكل: لا تتشاءم . هيا أخرج من هنا . رافقنى حتى آخر الطريق سنتحدث ونحن نمشى .

بدا الرجل مليئا بالفزع . قال:

– لا أستطيع . إنهم فى كل مكان . إنهم يطاردوننى .

قال هيكل وهو يمسكه من ذراعه: لا تخشى شيئا ، أنت معى . لن يستطيع أحد أن يقترب منك وأنت تتمشى مع صديق .

هتف الشحاذ: صديق . من أجل هذه الكلمة فلا يمكن أن تورد على نار .

تابع هيكل . مترددا فى البداية . ثم مشى إلى جواره . بدا خوفه وكأنه قد زال ، ظل محتفظا بإيقاع خطاه . ابتسم هيكل ، فهو سعيد من هذا اللقاء وراح يبحث عن وسيلة لمساعدة هذا الشحاذ ، قال:

– سوف أقدم لك اقتراحى . لست فى حاجة أن تنتظرنى فى الشارع . تعال لتزورنى كل يوم فى منزلى . فليس هناك أى خطر .

نظر هيكل إلى الشحاذ ورآه قد أصبح أكثر حزنا ، فالاقتراح لم يرضه قط . سأله:

– ماذا يضايقك؟

سكت الرجل ، وقد بدا مكفهرا . وكأن هيكل قد أهانه بشدة .

انتهى بأن قال:

– لست موظفا . وماذا ستفعل صداقتنا؟ ألا يوجد سوى النقود فى الدنيا يروقنى أن اتحدث معك وهذا هو ما اندم عليه .

قال هيكل: فهمت . . وأنا أيضا افتقد هذا . اذن . افعل ما قلته لك . خذ هذه .

أخرج قطعة نقود من جيبه ودسها فى يد الشحاذ .

قال الرجل: ربنا يزيدك بركة . . فرؤية وجهك تجلب لى الخير . . وتولد الأمل فى قلبى .

الآن ، حل الليل . وصلا عند أطراف ميدان يغمره الضوء تماما ، وتحفه المحلات ، والمقاهى المليئة بضجيج الزبائن . دليل سيادة هذه الحضارة البوليسية التى تتحدى هذا الشحاذ . توقف غاضبا ، وكأنه أمام

غابة غزها الحيوانات المتوحشة المتأهبة للانقضاض عليه . فقرر الا يذهب بعيدا . قال هيكل:

– حسنا ، اتفقنا . هل ستأتى لرؤيتى؟

وعده الرجل: سوف أجئ لأراك مرة ، علىّ أن أجرب الموت! حفظك الله .

نصحه هيكل بالحذر . . ثم تركه وعبر الميدان .

يقع مقهى الــ "جلوب" الشهير على مسافة قريبة من الكورنيش فى أحد الشوارع الأكثر فخامة بالحى الافرنجى . توجه إلى مكانه الذى يمر أمامه دائما بلاتوقف ، أكبر عرض من الحسناوات حيث يقضى أغلب الزبائن – يمكن أن نقول جميعهم – أوقاتهم فى استكشاف هضاب النساء اللائى يمرون فوق الرصيف بإيقاع يثير الدهشة . فالأثــواب الرقيــقة التى ترتــدينها هــذه المخلــوقات عــامة جــذابة . تجعل مهمته سهلة ، بعض الزبائن – وليس أغلبهم – من الشبان ، يجلسون طيلة النهار ، يراقبون عن قرب اتساق ساق جميلة ، أو تموجات فائرة لردف ما . حقا ، فإن ما يحصل عليه الفتــيان من هــذه التــأملات العــاطفية لفتنتهن ليــست كافــية ، يحكى أن من بينهن ، توجد بعض الداعرات اللائى يخرجن عمدا بلا "لباس" من أجل إثارة المتعة الخبيثة لدى البصاصين " الغلابة " . ولهذا فإن شرفة مقهى " الجلوب " لا تخلوا ابدا . حتى فى ساعات القيظ بعد الظهيرة . لأن هؤلاء الآنسات ، حسب العادة ،

يستعرضن أجسادهن فى ساعة القيلولة . أما داخل المقهى فيبدو خاليا تماما . يرى أحيانا رجلان أو ثلاثة من العجائز على أهبة الرحيل من هناك ، منشغلين – بلا هدف – فى مباراة دومينو تكون نتيجتها مخاطرة ميئوس منها ، من وقت لآخر يلتفتون رغما عنهم إلى صيحات الاعجاب لزبائن الشرفة ، فيلقون عبر الفتحة الزجاجية نظرة إلى الشىء موضع الدهشة ، ثم تخيب مشاعرهم . ويلقون بأنفسهم فى لعبتهم الشيخوخية .

جلس هيكل عند طرف الشرفة . كعادته . ثم راح يفتش بين الموائد ، يتذكر المداعبات القدرية حول بدلته الرائعة المكواة لتوها ، نظر أمامه ويدا غير مستعد لان ينتبه للعابرين فى الممر ، تساءل إذا كان خالد عمر قد وصل . وهل سيتعرف عليه . هذا دليل مؤكد يجعل التاجر هدفا بأن يسبر فيه صديقه الحميم الجديد . انه نوع من الاختبار . عليه الآن أن يتعرف على هذا الرجل الشديد الذكاء ، بدا له أنه من المستحيل على خالد عمر – إذا كان صحيحا هو الشخص الذى يتصوره – أن يكون قد تجاهل وجوده .

وقف شخص أمامه كأنه يسد الطريق ، أخفض هيكل نظرته ، و رأى هيكل "عمر" الذى مد له يده الضخمة المرصعة بالخواتم:

– لقد شملتنى بشرفك!

أجاب هيكل: بل كل الشرف لىّ .

امسك يد الرجل . وراح يضغط عليها بيديه . أجاب خالد عمر:

- تفضل ، اجلس .

جلس هيكل . وظل خالد عمر للحظة واقفا . ثم جلس بدوره . لم يكف عن النظر اليه ، وبدا هيكل زائغ العينين . أعطاه الانطباع أن شخصا ما كان سببا لنبرته المبتهجة . قال هيكل:

- معذرة إن جعلتك تنظر ، هل أنت هنا منذ وقت طويل؟

بدا خالد عمر كأنه يخرج من حلم:

- عشر دقائق تقريبا . ولكن هذا لا يهم ، أنا بالغ السعادة لرؤيتك . لقد عرفتك على الفور .

اقترب النادل منهما ، زجاجة ويسكى وطبق صغير ملئ بالمشهيات ، سأل الصبى وهو يوجه كلامه إلى هيكل:

- ما طلبات سعادة البيه؟

طلب هيكل ويسكى فذهب النادل ، أمسك خالد عمر طبق المشهيات وقدمه للشاب:

- تفضل ونحن ننتظر .

قال هيكل: لا ، شكرا . ليس الآن .

قال خالد عمر: اعذرنى لأننى آكل أمامك ، فأنا أحب المشهيات . . كل أنواع المشهيات .

التقط من المشهيات . . . ودسها فى فمه ثم ألقى النفايات بأصابعه.

أكل خالد عمر من المشهيات وهز رأسه وهو يتفحص هيكل مشدوها:

– لقد عرفتك على الفور .

رد هيكل: أريد أن أخبرك أن هذا يسعدنى .

– كنت واثقا اننى سأعرفك . أليس كذلك؟

– ماذا تعتقد؟

قال خالد عمر: حسنا ، من الغريب أنك أردت مقابلتى بهذه الطريقة . لا أفهم لماذا تبحث عن المصاعب . كان يمكن لصديقنا كريم أن يقدمنا لبعضنا . على كل لم يخدعنى وهو يصفك . هذا لا يعنى أنه وصفك شكلا . وملبسا . لا ، بل كلمنى عن أفكارك ، ويكفى هذا لأن اتعرف عليك .

تساءل هيكل: هل تبدو افكارى على وجهى؟

– لا اعرف كيف أشرح لك . لقد رأيتك لتوك تعبر الشرفة . وتساءلت: هل هو؟ لقد بدا عليك أننى اعرفك أكثر من الاخرين .

قال: اعرف شيئين بالغى البساطة . أما الباقى فلا أهمية لهم .

– انهما ربما الشيئان اللذان اعرفهما .

– بلا شك ، ولهذا أنا هنا . يمكننا أن نتكلم بصراحة .

– اذن قل لى أول الشيئين . وأنا أسمعك .

وكأن ما سوف يسمعه يستحق زيا رسميا ، لذا أسرع خالد عمر بضبط رابطة عنقه وناعم شاربه المصبوغ . لم يكن فى تصرفاته أى دليل مزاح ، وأيضا أى نوع من القلق:

– الأول هو ان العالم الذى نعيش فيه تحكمه عصبة نبيلة من الأنذال التى لطخت الارض .

– أنا متفق تماما مع هذا ال رأى . . والثانى؟

– الثانى ، أنه لا يجب أن نأخذ الأمر على محمل الجد ، لأن هذا هو ما يرغبون فيه .

قال خالد عمر وهو يطلق ضحكة صاخبة وعميقة: اتفقنا .

أثارت الضحكة العدوى . لأن العديد من رواد المقهى قد رددوها لتوهم . وتداولوها كل بطريقته ، استدار خالد عمر حوله وراح يغمز لهم بعينين ممتنتين . وكأنه يشكرهم أنهم انتبهوا لمرحه ، وكأنه يشجعهم على متابعة هذه البهجة الهذيانية ، ثم هدأ ، أما الآخرون فقد استمروا فى الضحك الذى انطلق دون أى قصد . لم يشارك هيكل فى هذه البهجة العامة . وظل جالسا فى مقعده بكل جمود وشموخ . يراقب بكل رضاء تصرفات صديقه الجديد ، إنه مشدوه للغاية بهذا الرجل القصير المرح

المكرش ذى الشارب اللامع المدهون الذى تفوح منه رائحة البنفسج . إنه حالة بسيطة: رجل لم تفسده النقود . ظل على نفس طريقته كشخص إلى عهد قريب يمشى حافى القدمين وينام فوق نفس الرصيف . بدا متنكرا فى ملابسه المتعددة الالوان . فلم تستطع كل ثروة العالم أن تأخذ منه هذه البهجة الأصيلة . هذه المشاعر الخشنة التى تبدو فى كل حركاته. بدت ضحكته كأنها تحد سافر وساخر فى مواجهة السلطات . أكمل خالد عمر:

– هذا أمر بديهى .

قال هيكل: نعم ، إنها لا تمنع إلا القليل من الناس أن يتصرفوا بمثل هذه البديهية .

– ماذا يهمنا؟ هل ستكون من الناس الذين يودون حكم العالم؟

رد هيكل: ليحفظنى الله . لا أود حكم العالم مهما كان . فلا يوجد أسوأ من هؤلاء الذين يحكمونه . إنهم جميعا من الطموحين .

قال خالد عمر : أعرف ذلك . ولكننى سعيد أن أعرف ذلك على لسانك . لقد قابلت فى السجن بعض هذه النماذج ، بـــدوا لى كأنهم من عجيـــنتى بمظهرهم المألوف . كانوا أكثر انتفاخا من امرأة حامل . لقد أثرت معـــايشتهم على فى السجن تأثيرا مريرا .

قال هيكل بحقد باد: انهم يثيرون الملل . هدفهم هو تغيير الحكومة بأخرى . هذا ما قيل بالضبط . كان أغليهم يحلم بأن يصبح وزيرا ، هل

يمكنك أن تتخيل طموحا أكثر قذارة . أرجوك لا تكلمنى عن هؤلاء الناس .

– أنت على حق . اذن ، اسمع ، أريدك أن تعرف أن هذا يجعلنى متوافقا معك . لقد حكى لك صديقنا كريم اننى بحكم القدر أصبحت تاجرا محترما وموسرا . بعد أن كنت فريسة للسجن . انها قصة جميلة ، ونبيلة ، سوف أشرحها لك بالتفاصيل ، لأننى واثق أنك ستفهمها . باختصار لقد كسبت كل أموالى بطريقة حمقاء بالغة العبثية . حيث تفتحت عين أى على جنون العالم . لذا فأنا أريد أن أضع هذه النقود فى خدمة هدف عقلانى عادل . أريد أن أساهم فى جنون العالم . هل تفهمنى؟

– طبعا . سبب عقلانى ، أنت لايمكن أن تعبر عن أفكارى أحسن من هذا .

– من غير المجدى أن أخبرك اننى أضع كل ما أملك تحت أمركز أنا متعجل لمعرفة مشاريعك؟

رفع يده ووضعها على ذراع هيكل بحركة أخوية .

سكت هيكل . ليس لانه لا يوافق على هبة التاجر . ولكن بكل بساطة ، لأن قلبه يدق فى كل مرة يتأكد فيها من أخلاق هذا الرجل الذى لا يكاد يعرفه ، انه يقدم له ثروته ، أى نوع من الدوافع تدفعه كى يتصرف بمثل هذه الصورة ، هذا التاجر الامى كان بالتأكيد شخصا غريبا . ماذا قال؟ إنه يساهم فى جنون العالم .

خاف هيكل من هذا الصفاء الذى يفوح من روح خشنة . هل قابل صديقه لتوه؟ وهل هو فى حاجة اليه؟ و رأى متعة تنتظره من هذا الهدف الأحمق الذى يستعد من أجله للتضحية بثروته؟ ثروته؟ لم يطلب منها هيكل شيئا . هل يفقر أن يبدد ثروته بدافع التسلية؟ ليس عليه سوى أن يحتفظ بها . والعرض مجانى .

سحب خالد عمر يده فلمعت الخواتم لحظة فى الضوء . هنا عاد النادل اليهما . قال هيكل وهو يمسك الكوب الذى وضعه على المائدة:

– لنشرب نخب مفاهيمنا المشتركة .

رفع خالد عمر كأسه ثم طرقا الكأسين .

كان الشارع مزدحما بمتنزهى المساء الباحثين عن الهواء المنعش بعد يوم قائظ . حيث يمر بعض الموظفين المتعجرفين ، ارباب أسر ، "متكابرين" تتبعهم زوجاتهم وأبناؤهم . وأيضا ثنائيات من الشباب يمسك كل منهما بيد الآخر ، بمهابة واضحة ، لكن أحد من رواد "الجلوب" الجالسين على الشرفة لم يلتفت إلى هذا الموكب الكئيب ، ليس من أجل هذا الحشد البشرى الذى يموج هناك . فالكل ينتظر بصبر نافد مرور انثى ذات تكوين جسمانى متميز ، قادر أن يثير فيهم المتاعب الشهوانية ، ومن وقت لآخر ينطلق صخب حاد وكأنه صفارة إنذار تعلن اقتراب الترام التائه فى الضواحى ، السائقون يرتدون زيهم الأكثر تميزا فى الزحام ، يسبون الحشود المتكاسلة التى تموج وسط الطريق ، التى تنشد النسمة

الخفيفة القادمة من البحر ، حاول هيكل دون جدوى أن يميز فى هؤلاء الرعاع الوجه الطيب والسمح لبعض المتشردين الهاربين من براثن الشرطة ، لم ير أحدا منهم . حقا ، لقد أصبحت شوارع المدينة منحوسة بشكل غريب ، لقد خلت إلا من الوجوه الشعبية . انهم الحزانى والمحتاجون ، فالمرء محاط فى كل مكان بالموظفين ، لم يستطع هيكل أن يمنع نفسه من التفكير فى الرد على الشحاذ عندما سأله أن يأتى إليه كل شهر ليأخذ المبلغ الذى خصصه له . لقد رفض بذلك أن يجعله موظفا ، أى أن يصبح شحاذا مألوف الوجه . أى أهانة اذن أن يكون من هذه الذرية التى لا تعرف سوى ممارسة الوظائف ، أن تتبع الروتين العام . نفس الحكايات المألوفة لهؤلاء الموظفين الصغار الذين عرفوا بالقدرة على العمل والمثابرة . إنه من الصعب التفكير فى أن الجنس البشرى لم يفرز سوى رجال عظماء ، وموظفين صغار يتطلعون للترقية ، وفى بعض الحالات الضرورية ، يمكنهم أن يقتلوا الآلاف من أمثالهم ، من أجل الحفاظ على وظائفهم والطعام الأنسب لأسرهم ، هذا الشىء الوغد الذى يدعو للرثاء والذى يفرض الاحترام واعجاب الجماهير .

دفع خالد عمر الهواء بيده كى يصطاد ذبابة حطت على طبق المشهيات ، ثم القى على هيكل نظرة خالية المعنى . لماذا سكت رفيقه؟ لماذا راح يهتم بحركة الشارع؟ هل يتحدى نفسه؟ فكر خالد عمر طويلا فى الطريقة التى دار بها الحوار ، وتساءل اذا كان هيكل سيلبى مطالبه فى هذا اللقاء الأول . أعطاه سكوته الشعور أنه متردد فى كشف مشاريعه له . فافتقاد الثقة يؤلمه . ألم يضع كل ما يملكه رهن إشارته؟ أعجبه البرود

الظاهر لهذا الشاب ، وغريزية أساليبه ، وابتسامته الساحرة وازدراؤه إنه يذكره بالعلامات الجلية لروحه الأرستقراطية ، لا شك أن خالد عمر معجب بهيكل بلا حدود من خلال كل ما قاله له ، فهو ينتظر أن يوافق أن يمنحه ثروته واخلاصه . قال هيكل:

– أشكر لك كرمك . من المؤكد أننى فى حاجة لمساعدتك . لكن هذا لن يتطلب ثروة كبيرة ، يكفى مبلغ قليل للغاية .

– مهما كان فأنا تحت أمرك .

عقد هيكل ساقيه ، وشرد لحظة ، وقد ركز عينيه على جموع المارة . ثم استدار نحو خالد عمر ، وقال:

– حسنا ، أعتقد أننى لست فى حاجة أن أعرفك ، ان الرجل الذى يحكم هذه المدينة الآن قد تجاوز حدود الرعب والغباء .

– أعرف ، أعرف أيضا أن كل العصبة السيئة من رؤساء الصحف يتبعونه ولا يتوقفون عن التغنى بتملقه .

– ليس هذا رديئا ، بل على العكس ، فمهمتنا ستكون سهلة ، لماذا اذن؟

قال هيكل سهلة لأنها ستكون عادية ، سنغنى متملقين هذا المحافظ البشع وسوف نتجاوز غباءه .

– لقد علمت من كريم أن الصحف قد توقفت عن نشر رسائلك التى تكتبها للقراء المتحمسين . على كل فهى فكرة رائعة . اسمح لى أن أهنئك .

– الأمر لا يتعلق بهذا . سوف نفتتح مؤسسة دعاية من طراز فريد . شيء ما لا يمكن للبوليس السياسى أن يلحظه . سنبدأ بطباعة إعلانات عليها وجه المحافظ ، سنجبر كل السذج أن يضحكوا منه وبمساعدة أصدقائنا . سوف نعلق هذه الاعلانات فوق حوائط المدينة . هل يمكنك أن تقوم بعمل من هذا النوع؟

– طبعا . ستعتقد كل المدينة أن كل هذه الاعلانات مطبوعة بواسطة خدمات البلدية المعنية بالمطبوعات .

– ومن يشك ؟ هل رأيت أبدا ثوارا يناضلون محافظا أو يتحدونه وهم يتغنون بمديحه . هناك شيء آخر وهو أن المحافظ نفسه سوف يتخيل أن هذا قد تم بواسطة أحد أتباعه المخلصين وسوف يرضى غروره بالتأكيد . انه شديد الغباء كى يفهم الامر . وحتى عندما يفهم . سيكون من الصعب أن يمسك شيئا . وسوف نستمر فى التملق بكل جدية ، ولن تكون هناك أى مخاطرة ، ولن يجرؤ قط فى القبض علينا . أنا مستعد من ناحيتى أن أقول عنه كل ما لدينا أمام أى محكمة . ولكن هذا لن يحدث .

قال خالد عمر: كلماتك تملؤنى بالأمل . بالله ، لا أعرف ماذا أقول . .

رد هيكل: ليس هذا كل شيء . فهذه الاعلانات ليست سوى بداية . فأنا لى طرق أخرى سوف تجعل المحافظ مشهورا فى كل البلد . سوف يصبح مثيرا للسخرية لدرجة أن الحكومة سوف تضطر أن تخلعه .

تململ خالد عمر على مقعده . وقد سيطرت على نفسه شيئا فشيئا مشاعر رقيقة ، لقد بدا وكأنه اكتشف تصدعا فى عقل هيكل . هذا التصدع ذو أهمية كبرى ، يستهدف لتدمير شخص له مكانته كالمحافظ . أليس هذا متفق مع رغبته؟

ألزمته هذه الفكرة الصمت للحظة:

– أخبرنى . هل سنراه حقا وقد تم خلعه؟

– طبعا ، لا . أين ستجد رجلا أنسب منه سخرية . للأسف سوف نضطر أن نفعل هذا . فليس لدينا الخيار .

قال له خالد عمر: أحس أننى سأتسلى على أحسن ما يكون .

التفتت امرأة تبدو غانية ، ذات ثديين ناهدين فى مشدهما وكأنهما سفينتان فى أعلى البحر ، ونظرت إلى شرفة المقهى . مرت وأطلقت نظرة جانبية داعرة ، فاقتفى زبائن المائدة المجاورة أثرها على الفور بعبارات الغزل كأنهم عارفون ببواطن الأمور . تكلموا كأنهم جنود داخل خنادق

اكتشفوا الحقيقة الاساسية لعالمنا ، ثم راحوا يطلقون التساؤلات والتعبيرات الغامضة المجسدة ، وأخذوا يطلقون انتقاداتهم حول ادق التفاصيل الحميمة لجسد المرأة المجهولة . قال هيكل:

– ألا تبعث النساء على تسليتك بما فيه الكفاية؟

رد خالد عمر : أحب النساء . ولكن هـــذا لا يقارن بمتعتى فيما يتعلق بهذه الشهوة .

– هل انت متزوج؟

– حسن . بصفتى تاجرا محترما يجب أن أشرح لك انها ليست نفس الطراز دائما . لست من الاثرياء الاغبياء الذين يغيرون سياراتهم كل عام ويحتفظون بنفس المرأة . أنا أغير المرأة كل عام ، وليست لدى سيارة .

قال هيكل: أنا سعيد بهذا لأجلك .

– أحيانا ، أتخلص منهن فى فترة قصيرة . صدقنى . فالنساء تصيبهن الشيخوخة أسرع من السيارات .

ثم أكمل بعد لحظة:

– لنعد إلى عملنا ، ماذا تطلب منى؟

قال هيكل: كل ما أطلبه . ألا تعتقد أنه من الصعب العثور على رجل له مصادره مثلى . هاك . فأنا فى حاجة إلى مطبعة أولا . ثم إلى مكان سرى نقوم فيه بعملنا . هل يمكن أن تدبر لى هذا؟

– كل ما تريده . ستكون لك المطبعة خلال يومين أو ثلاثة أيام على أقصى حد . الا يمكن أن أفعل شيئا آخر؟

– الآن ، هذا يكفى . أشكرك . فسوف أتكفل بالباقى .

– اعتقد أنك ستكتب نص الاعلانات بنفسك .

– لا . ليس أنا . سوف أكلف به أحد أصدقائى ، انه ناظر مدرسة ، يدعى "عرفى" ، لعلك تعرفه .

– أعرفه جيدا . فأنا أحد تلاميذه ، وقد تعلمت القراءة فى مدرسته .

هتف هيكل باعجاب غير مصطنع: هل ذهبت إلى مدرسة عرفى . بشرفى أنت راجل رائع ، لماذا وددت تعلم القراءة؟

لقد غار التاجر من رؤية كريم أو أى شخص من أصدقائه المتعلمين ، وقد راحوا يقرءون مقالات الصحف ، مما جعله يحس أنه خارج اللعبة . وكان عليه أن يتوسل اليهم أن يقرءوا له مقاطع من الصحف التى تجعلهم بالغى السعادة . ولكن بالتأثير يمكنه أن يضحك بدوره وربما أكثر من الآخرين ، لكن هذه البهجة المتأخرة لم تكن تنقصها المرارة ، وقرر

التخلص من هذا الامر . بأن يتعلم القراءة ، أراد أن يتعلم بلا وساطة بعيدا عن الخسائس العالية التى يمارسها طغاة السلطة:

– أحب دائما أن أتحقق من كذباهم . إلها متعة تأخرت فى معرفتها . للأسف ، فأنا لم أتقدم كثيرا ، فأنا تلميذ بليد للغاية .

– هل كنت تذهب هناك بانتظام؟

– لا . بين وقت وآخر . كنت أحب عرفى كثيرا . هل تعرف أن أمه أصابها جنون؟

قال هيكل: أجل . كنت هناك . فمنذ بضعة أشهر أصابتها حالة فراغ ، نوع من الجنون .

– ليس الامر جسيما .

– الامر لا يمنع أنها تشكل بالنسبة له عبئا ثقيلا . فهو لا يمكنه أن يعتنى بها . وفى نفس الوقت يهتم بتلاميذه ، قبل أن يحدث هذا . كانت تساعده فى عمله . انها امرأة مثقفة ، صدقنى ، فصديقنا يعيش فى موقف مأساوى . رغم أنه لا يود أن يمتثل . اقترحت عليه مرات عديدة أن أرسلها على حسابى إلى مستشفى متخصص لعلاج هذا النوع من الجنون . ولكنه رفض بإباء . لم أود أن ألح اكثر خشية أن أجرح مشاعره . انه أمر بالغ الحسياسية . ألا يمكنك أن تناقشه فى هذا؟ أرغب من كل قلبى أن أقدم له يد المساعدة . أنا واثق أنه سيستمع لك .

استغرق هيكل وقتا فى التأمل . فقد كان يعرف عرفى منذ أمد طويل ولا يجهل كل الحب والعاطفة التى يكنها ناظر المدرسة لأمه . فهو يريدها قريبة منه حتى وهى مجنونة .

– أعرف عرفى جيدا ، انه رجل بالغ الذكاء . يزعم أن أمه ليست مجنونة . ومؤمن بأن فى العالم الذى نعيشه يرى البعض أن الجنون أمر عبثى . أعتقد أنه على حق .

– سمعت أنها كانت تقوم بالقاء بعض الدروس للتلاميذ اثناء غياب عرفى . وكما يبدو فالاطفال لم يفهموا شيئا ، لقد اعتقدوا أنها مريضة .

قال هيكل: لكننى بصفة شخصية كنت أحب رؤية هذا المشهد .

بدا خالد عمر مذهولا من هذه السخرية:

– أرى أنك رجل متطرف فى أفكاره . وأنا أحب ذلك .

– لماذا أوجد فرقا بين جنون اصدقائى ، وجنون الآخرين؟

قال خالد عمر وهو ينفجر ضاحكا: فهمت .

لكن ضحكته هذه المرة لم يكن لها صدى بين زبائن المائدة المجاورة . لسبب غامض ، فكل الزبائن قد بدوا فى حالة شرود ، لانه لم تمر أى امرأة أمام المقهى منذ قرابة ربع ساعة . .

(6)

بدا الصمت الذى ساد الفصل مربكا من خلال صوت متميز استطاع عرفى أن يعرفه دون أن يرفع عينيه . انه احد التلاميذ ، يجلس فى المقعد الاخير يقزقز لب البطيخ المحمص ، منذ لحظة ، تردد فى ان يتدخل خشية أن يثير انتباه التلاميذ الآخرين الذين أثقلهم حر الظهيرة المميت . فهو دائما مستعد لأن يثور عند أقل حركة ، لاشك أن الشراهة الصاخبة لهذا الصبى الجرئ تمنعه أن يركز ، لقد تشمت إلهامه ، إنه فى حالة كتابة نص الإعلان الذى يمتدح منجزات المحافظ . والذى يود هيكل أن يعلقه على حوائط المدينة . وتحت مظهره الرقيق والهادئ ، ابتهج داخليا وهو يقوم بصياغة المديح لتلك الشخصية المعروفة ، فهذا العمل المهم . بالمعيار الذى يكتب به ، يأخذ شكل خطبة عصماء مخصصة للقراءة فوق مقبرة

بطل همام . كان عرفى مقتنعا بمهمته كمداح ، والتى جعلته يؤمن بكل التملقات الحمقاء التى يوحهها للمحافظ ، ولطيبة قلبه ، راح يضخم كل السمات والفضائل الخيالية مستخدما كل التعبيرات التى تستخدمها الصحف حين تمجد المجرمين المعروفين ، الذين خاضوا الحروب العديدة بلا وعى .

من جديد أصاب الصوت الساخر اذنه ، توقف فى وسط جملة ، ثم رفع رأسه ، وبدا كأنه قد قرر أن يضع نهاية لهذا التلميذ العاصى أثناء حصة الظهيرة المقدسة . . لمح المذنب بعينيه ، انه "زرطة" المرعب ، غلام فى الثانية عشرة من عمره ، شخص لا يباريه أكثر عباقرة الكذب فى هذا القرن . هنا تساءل عرفى عما اذا كان لديه فى الفصل وزير من حكومة السلطة . لا شك أنه كى يتخلص من سطوة كذبات هذا الطفل ستكون خطئا قدريا . كان عرفى يعرف أن ليس عليه سوى أن ينتظر إشارة لكى يستيقظ من غفوته ، أطلق التنهيدة بصبر نافد لسلوك تلميذه . ومن قمطره القائم فوق المنصة حيث يسيطر على الفصل الذى يوجد به عشرون ولدا وبنتا من السادسة إلى العاشرة – انكفئوا ينسخون فى كراساتهم بعض اسماء الإشارة المكتوبة فوق السبورة السوداء . . هذا الامتحان كان اختياريا ، انكفأ أغلبهم على مقعده ، لا يحسون بطعم الحرص على المعرفة ، والسبب هذه الحرارة الخانقة . كأنهم مضربون ومتبلدون ، تركوا الذباب يملأ وجوههم بلا مقاومة . فالفصل جزء من مسكنه الواقع فى الدور الأسفل لمترل قديم يشغله عرفى مع أمه . هذه الغرفة الواسعة بها منافذ مفتوحة على الرصيف ، وتطل على حارة تجارية

، وكالعادة فإن مرور جموع المارة الذين لايُرى منهم سوى السيقان ، يثير عدوانية الصبية ، الذين يتسلون ، وقد تسلحوا بالنبال ، بأن يتعاملوا معهم كأهداف ، ولكن فى هذه الساعة تبدو الحارة خالية . فلا أحد يجرؤ أن يلقى نظرة فى هذا الحر .

أخرج عرفى منديله من جيبه ، ومسح جبهته نصف العارية بصلعته المبكرة ، هذه الصلعة هى واحدة من علاماته كمدرس ، لم ينقصه أبدا أن يعتنى بها وأن يلمعها وكأنها قطعة من الأثاث الثمين فى مساكن الفقراء ، هناك اعتقاد فى الحى ، أن سقوط الشعر دليل على الحكمة والمعرفة . تبنى عرفى هذا الوهم وهو يضع رأسه دائما فوق دماغه عندما يكون فى حضرة الآباء المشعرين الذين يتعاملون معه ، كشاب بلا مستقبل ، ولكنهم لم يتوقفوا عند العلامات الخارجية لعبقريته الفكرية . كان عرفى أيضا ضعيف النظر للغاية . فقد كان يرتدى نظارة من الصلب المطعم بزجاج سميك . تبدو النظرات خلالها وكأنها تمر من مرشح قوى ، ناظر مدرسة أصلع يعانى من ضعف البصر ، انه أكثر حرصا مما يجب حتى يكسب الثقة من جموع الأميين ، اقتنع بهذه المسلمة وأن رجلا أعمى لا يمكنه أن يضمر شرا .

بالمقارنة بخارج الفصل ، بدا المكان أشبه بواحة منعشة ، كان عرفى يحب صفاء ما بعد الظهيرة بعد أن ينام الأطفال ، الذين أجهدهم الحر ، واضعين حدا لمتاعبه ، يمكنه إذن أن يتفرغ للمتعة الفكرية ، فبعد سنوات قضاها فى المكاتب المتربة ، بإحدى الوزارات ، انتهى بأن وجد وظيفة

مناسبة لطبيعته ، وطيبته ، ورقة سماته ، جعلته دائما يفضل صحبة الأطفال عن الكبار . فى الحقيقة ، فقد كان الكبار يخيفونه . ففى كل واحد منهم يرى قاتلا شرسا . وعرفى فى حاجة إلى أن يحيا بلا لف ولا دوران ، ولا مماحكة ، وخاصة أنه قادر على الغفران . ولكن كيف ينظر للكبار ؟ إنهم مملوءون بالأنانية ، والغباء والقبح ، والطموح الخائب والعسر مما يفضله عمن فى مثل سنه ، الطموح ، إنهم جميعا معذبون بالطموح ، الوصول ، الوصول إلى ماذا ؟ ثم عندما يصلون إلى المجد أو المال ، فإنهم يصبحون أوغادا ثقلاء ، وحوشا تعج بالعجرفة ، غير قادرين على الإحساس بأقل ذرة من الحس الانسانى ، أما ما يعجب عرفى عند الاطفال ، فهو هذا الفقدان الشامل للطموح ، فهم يعيشون سعداء فى حياتهم اليومية ، ولا يطمحون سوى فى أن يظلوا أحياء . ولكن كم يدوم هذا ؟ سرعان ما تمر الطفولة ويتسرب الشباب الرائع . هذه الحقيقة الأكيدة تملأ عرفى بالمرارة .

فهو والاطفال سيصبحون فيما بعد رجالا ، وسوف يستكملون مسيرة الذئاب ، وسيخرجون من حبسهم الملئ بالنقاء ، ليضيعوا فى خضم القتلة الكثيرين .

جاءته فكرة فتح مدرسة خاصة يوما كرد فعل ضد التعليم الرسمى الذى يرسخ السفالة فى أذهان الاطفال ، والخسة والدناءة لمجتمع عفن كنظام التعليم إنه إهانة للأحلام البريئة والساحرة لعالم الطفولة . كان عرفى يتمنى . منذ أمد طويل ، أن يكون لديه شىء يقوله للاطفال .

وليس الكبار فى حاجة إليه ، لم يتأخر فى تنفيذ مشروعه ، وبمعاونة أمه التى كانت تساعده ، من ناحية أخرى فى مهمته ، خصص حجرة من مسكنه بالدور الأرضى . وأثثها ببعض المقاعد ، وبسبورة سوداء وكى يعطى عمله جدية . . أوصى رساما من الحى بعمل لوحة ضخمة . راح يعلقها أعلى باب المترل ، مما أثار انتباه عائلات عديدة من الحى لهذا الكهف العلمى ، وخاصة المصروفات المتواضعة التى يطلبها منهم ، فراحوا يرسلون أبناءهم قبل أن يجف رسم اللوحة تماما . . ووقعت بعض الأشياء الغريبة . فعلى عكس التوقعات ، فإن الاطفال بدوا مخبولين بمدرسهم . وعاندوا الآباء والامهات كى يذهبوا ليجلسوا فوق مقاعد هذه المدرسة الغريبة ، أدهش هذا آباءهم بشدة – وياهم من أناس طيبين جهلاء – لم يشـــكوا قط فى أن ذريتهم لديهم حمية التعليم . هؤلاء البائسون يجهلون أن أطفالهم يعيشـــون هنـــا فى جو فوضوى يتنـــاسب مع أذواقـــهم وأن عرفى نفسه رغم صلعته ونظارته الضخمة ذات الشريط الصلب ، كان حكاء خطيرا . فهو يتكلم إلى الاطفال ويبوح عن مشاعره بلغة تختلف عن لغة الكبار . كان يلقنـــهم مبدأ واحدا وهو: معرفة أن ما يقوله الكبار مزيف ولا أهمية له بالمرة . وهكذا ففى فصل عرفى يوجد تشكيل جيد من الأفكار العقلية لا يمكن لأى سلطة أن تنـــطق بها . وكم أحس عرفى نفسه أنه يختنق لسماع أفكار غريبة فى أفواه التـــلاميذ بمجرد خروجهم من الطفولة .

ها هو الصغير "زرطة" يتصرف الآن بلا حياء بأسلوبة الفظ ، إنه يبصق بقايا اللب الذى ينتهى من قزقزته فوق الأرض ، هذه الأصوات

أثارت عرفى ، لأنه كان منهمكا فى عمله ، والآن لقد حان وقت التدخل ، تكلم بصوت رقيق لكنه حازم:

– هيه . . . يا صغير . اذهب وقزقز لبك فى الشارع .

ابتلع "زرطة" اللبة التى كسرها لتوه بين أسنانه وراح يتبع حركة ذبابة تطير أعلى السقف .

أمسك عرفى المسطرة الموضوعة على قمطره ، ثم لوح بها فى اتجاه الطفل:

– هيه . يازرطة . أنا أتحدث إليك .

بدا "زرطة" على وشك البكاء وقد بوغت ، بدا أشبه بخنزير أكل جيدا . إنه أكول نهم قادر على التهام كل مايقع بين يديه ، لقد وصل إلى درجة بشعة من البدانة لا تناسب سنه ، قام كى يرد:

– فى الشارع . يا أستاذ . فى هذا الجو ، بشرفى أنت تريد موتى .

– هيا ، اذهب ، أرحل .

– ولكننى جوعان ، يا أستاذ . فأنا لم آكل منذ ثلاثة أيام .

قال عرفى وهو يهز رأسه: حفظك الله . ماذا ستصبح بلا كذب . للأسف . سوف تتركنا قريبا ، فقد أصبحت رجلا .

بدا هذا التلميح من الأستاذ لزرطة قاسيا وظالما ، تململ ، لصق يديه على بطنه . كأنه يحاول أن يُخرس الجوع الذى ينهشه ، قال منتحبا:

– لماذا تشوه سمعتى يا أستاذ . ماذا فعلت كى أستحق هذا؟

توقف التلاميذ القلائل ، الذين كانوا ينسخون الكلمات المكتوبة على السبورة السوداء فى كراساتهم . عن عملهم ، أما بالنسبة للآخرين ، فقد استيقظوا وهم يتثاءبون وشرعا فى تأمل زميلهم ، الذى أصبح هدفا للمدرس ، شرح عرفى بهدوء:

– سأقول لك لماذا يجب أن تتركنا . أولا لأنك أصبحت بدينا ثم لأنك تكذب مثل الرجال الذين أصابهم الثراء ، لا يهمنا أن يكون لدينا شخص مثلك بيننا . فكذبك لا يمكن أن يبقيك هنا أبدا . لقد حان الوقت كى تغشى العالم . الآن كف عن قزقزة هذا اللب . وعليك أن تنام مثل زملائك .

عانى زرطة . ففكرة ترك المدرسة قد أثرت فيه بقوة: النوم لا يغلبنى . ولكن أعدك ألا أقزقز اللب . لقد قطعت شهيتى يا أستاذ .

قال عرفى: أرجو أن يكون هذا للأبد .

بدأ بعض التلاميذ فى تأمل زرطة وهو يكاد أن يصل إلى حد الترهل . ثم طلبوا منه بكل جرأة أن يشاركوه لبه ، فساءت الأمور وأصبح على عرفى أن يضع حدا لهذه الغارة المفاجئة ، وهو ينطق بالجملة الحاسمة التى يستخدمها فى مثل هذه الحالات:

– إذا لم تلتزموا الهدوء ، سوف أطردكم جميعا وأغلق المدرسة . .

وكأنه هددهم بالموت ، أحدث التهديد أثره . وفى الحال ران صمت فى الفصل ، واستطاع عرفى أن يعيد صياغة نصه . فانتهى منه . أحس بالمتعة لأنه أتقنه ، وردد بعض الجمل للتأكيد من معناها اللغوى ، والصفات المفرطة وهى مطبوعة ومعلقة فوق جدران المدينة . إنه نداء من ميت ، لقد توغل عرفى فى أغوار الفكرة التى أسفرت عن عقل هيكل : من أجل خدمة الثورة ، فإن السلاح المرعب هو السخرية . والسخرية عند عرفى سائدة فى كل مكان . فهو منذ بضعة أشهر يعانى من جرح دام يطغى على طبيعته المألوفة . أعتقد أن أى سخرية لا يمكنها أن تخفف عنه : فقد أصبحت أمه مجنونة ، وتحولت إلى نوع من الكاريكاتير البشرى . ومنعه إشفاق البنوة أن يتصرف كساخر على هذا الوجود المخيف ، فاذا كانت هناك امرأة او أم مليئة بالرقة وإنكار الذات . فلماذا هذا الخداع ؟ أمام هذا الجسم الواهن ، والوجه المثير للعاطفة الذى يبدو كأنه يغوص يوما وراء يوم أكثر فى العتمة ، لم يحس بالقدرة على الضحك . أجل ، إنه فى بعض اللحظات ، يتخلى عن روحه الساخرة ، ويسقط فى هلع الصخب القادم من أعماق الخلود ويحس أنه : سيفقدها عما قريب ، سوف تسكن فيه المعاناة كاملة . وسيفقد حسه الساخر شيئا فشيئا ، وسيصبح فريسة للنحس واليأس . فالانسان مسكين حقا ، غير جدير أن يبلغ مدارك الطفولة التى يحبها كثيرا ، أحس أن لديه الشعور بالخيانة ليس فقط بعقله النقى . ولكن تجاه هيكل ومجموعته الساخرة ، فرغم أن هيكل ينظم هذا الموضوع الأبكم الأكثر اكتمالا ، فإنه مخدوع بالتأكيد ،

فلا شئ ينفلت من الرقة البادية التى تبدو فى نظرته وكأنها تخلصك من كل الشوائب الفاسدة فى روحك ، وكأنه من الأفضل أن تغلفك بحبها المتكابر ، لم يساوره أى شك فى ان هيكل يريد ان يراه يسخر من جنون أمه . انتظر منه الدليل الأكيد ، يبلغ شرفا كبيرا ، أو نوعا من المتعة الخارقة . إذا لماذا يبدو مغموما ؟ هل بسبب جنون العالم ، فى كل لقاء يسعى عرفى أن يكتشفه وهو يراقبه . أنه موقف سخيف ومشين ، حيث يملك هيكل أسلوبا جميلا وهو يبدو طيبا وكانه أخ . بينما عرفى يتكدر من وساوس العالم القاسية .

دقت خطوات فى الممر ، رفع عرفى عينيه نحو باب الفصل ، بقى متجمدا لثوان . منتظرا قلقا ، توقع رؤية امه . فى مكانها رأى كريم فابتسم له ، تخفف رد الشاب على ابتسامته بحركات تعنى أنه ليس لديه مايزعجه وأنه ينتظر أن يكلمه فى نهاية الحصة ، ثم وبخفة ، توجه على أطراف أصابعه نحو مقعد وجلس إلى جوار فتاة صغيرة صبغت شعرها باللون الأحمر الطوبى . وترتدى فستانا برتقالى اللون ، فبدت كأنها ثمرة غريبة الشكل ، كانت جميلة وقد اعتاد كريم أن يغازلها .

احتفظت الفتاة الصغيرة بعينيها منخفضتين وتصرفت كأنه غير موجود . داعب كريم شعرها ، وانحنى نحوها وهمس فى أذنها بنبرة عاطفية:

– إذا . فانت تتعلمين يا روحى؟

لم ترد الفتاة الصغيرة ، كشرت ، وأدارت رأسها وكأن ذبابة حلقت حولها ، أكمل كريم:

– ماذا هناك ، هل هو خصام أم ماذا؟ ردى يا روحى .

قالت الفتاةو دون ان تستدير بصوت منخفض ومبتهج:

– أين الهدايا التى وعدتنى بها يا "بكاش"؟

انتحب كريم بسخط ظاهر:

– هكذا النساء . كنت أعتقد انك تحبيننى لذاتى . آه . كم أنا بائس .

واستند على القمطر ورفع يده إلى جبهته وأطلق تنهيدة عميقة . وهو يراقب الفتاة من طرف عينيه . وانتظر أن تتبعه ولم تتأخر . أحس بالفتاة تتحرك ثم راحت تلمس ذراعيه وقالت فى نفس واحد: لكن أنا أحبك .

أحس كريم بالبهجة داخليا . فهذه الملهاة العاطفية يمكن أن يجعله سعيدا ، فالنساء مهما كن ، فى السابعة أو السبعين ، حساسات لنفس التملق ، والزمن لا يدخل فى الحسبان . يمكن اغواؤهن بنفس الطريقة ، داعب شعر الفتاة الصغيرة وبحركة رقيقة متناغمة ، ثم ألقى نظرة على الفصل . بدا له انه من الرائع أن يجلس ممددا فوق مقعد المدرسة ، وأحس أنه يتصرف كتلميذ . فتح كراس الفتاة الصغيرة . ثم بدأ فى

الكتابة . بحروف كبيرة مثلا شعبيا عن جحود البشر: "علمناهم الشحاته سبقونا ع الابواب" . كتب كريم الجملة عدة مرات على طريقة تلميذ بليد . لقد نسى سنه ، وسبب حضوره إلى هذا المكان ، ولم يفكر سوى فى الفتاة الصغيرة التى ترقبه جامدة . لم تر فيه سوى تلميذ ذكىّ .

ظل هكذا ربع ساعة قبل نهاية الحصة . ولكن عرفى اختصر الجلسة
– هيا يا أطفال ، انصرفوا .

احتج بعض التلاميذ الذين استيقظوا مبغوتين: الوقت لم ينته بعد يا أستاذ .

تدخل عرفى: لا اعتراضات . لقد رأيتكم بما فيه الكفاية اليوم .

انتهى الأمر بالتلاميذ ، وقد أحسوا بموات روحهم ، حاولوا أن يبذلوا ما بوسعهم بأن جمعوا متعلقاتهم ونركوا الفصل . ومع ذلك لم يذهبوا بعيدا ، تناثروا فى الحارة باحثين عن ركن ظليل . على مقربة من المدرسة ، وما إن غادر آخر تلميذ ، حتى نزل عرفى من فوق منصته واستعجل اللحاق بكريم . الذى لم يعادر بعد مكانه . قال وكأنه يعتذر:

– ألن أجعلك تنتظر طويلا؟

صاح كريم: ليس لدىّ ما أفعله . لكننى متلهف لقراءة نصك . أتمنى أن تكون قد انتهيت منه .

رد عرفى ، وهو يخرج ورقة مطوية من جيب سترته الداخلى ويمدها لكريم:

– حالا . امسك . . واقرأ .

– هل أنت سعيد؟

– إنه جناب المحافظ الذى يجب أن يسأل هذا السؤال . فلست سوى كاتب متواضع لسيرته .

وكأنه يريد أن يتمتع تماما بهذه الملذات التى سببها هذا النص . بدأ كريم فى اتخاذ وضع مناسب . ثم فرد الورقة . فما قرأه قد جعله تقريبا معتوها . يقال إن عاصفة قد هبت عليه . اهتز بضحكة مجنونة لا مثيل لها . أما عرفى فلم يتوقع مثل هذا النجاح . أحس بفخر شديد . اندهش قليلا . فبعض الاطفال ، الذين فوجئوا بهذا الضحك الصاخب . انطلقوا من ظل المنازل وجاءوا كى يتأملوها فى الدور الأرضى . وعند رؤية هذا الشاب الوغد ، تأهب الجميع للسخرية ، هدأ كريم بسرعة ، وراح يجفف عينيه من دموع الفرحة التى ملأت خديه ووقف أمام ناظر المدرسة . قال وهو يسيطر على ضحكته:

– إنه أمر شديد السخرية . فبـــالاضافة إلى صورة وجهه . سيـــكون الإعلان مثيرا .

سأل عرفى: هل يعجبك حقا؟

– إنه بكل بساطة متوحش . أريد أن أريك إياه مطبوعا .

– هذا شأنك . لكن أخبرنى: هل صحيح أنك تعلمت الطباعة؟

– إنها مجرد صدفة . أنت تعرف أننى قد تعلمت بضعة أشهر فى مجال الطبوغرافيا فى مطبعة . فى الفترة التى اختلطت فيه بالناس . وهكذا مارست مهنا عديدة .

جلس عرفى فوق مقعده . مدد ساقيه التى أصابها تنميل من بقائها فى غير حركة ، ثبت ناظريه على حذائه الرث وأحس بشىء غريب ، فواحدة من الفردتين أطول من الأخرى ، ولبرهة غزا روحه غموض لهذا التباين ، ثم عاد إلى رشده وبكل مودة . وضع يده على كتف الشاب ، قال:

– أنت صغير جدا ، وتريد أن تدافع عن مصالح الشعب ، أليس كذلك قد يقودك هذا إلى السجن .

لم تكن تلك هى المسألة . ولكنه أمر بسيط . لقد زعم أن الدفاع عن مصالح الشعب يمكن أن ينتهى بالمرء فى السجن . رد كريم:

– طبعا . ولكننى لن أندم . لأننى فى السجن اختلطت بالشعب . أنت تفهم أنه فى مصنع ما يعامل البشر كالحيوانات . فليس لديهم الوقت للحديث مع زملائهم ، من ناحية أخرى ، فإن موضوعات الحديث الوحيدة تتعلق بالعمل ، أو بالبلاد الفقيرة أو المرض الذى يبذر المصائب فى الأسر ، لا شىء سوى الموضوعات الصعبة ، بينما فى السجن هناك

وقت فراغ إنهم يتحدثون من أجل متعة المعرفة . إنه لأمر غريب . لكن السجان أقل بشاعة من أى مكان آخر أنت تعرف أنه قبل الذهاب إلى السجن كنت أؤمن أن الشعب ذا طبيعة عبوسة وأنه لا يعرف سوى المأساة؟ لم أكن أعتقد قط أنه ملئ بروح الفكاهة . وملئ بخفة الظل . أجل اكتشفت هذه الحقيقة الأساسية لشعبنا فقط فى السجن . وعرفت أن كل أفكارى عنه كانت مزيفة .

وبصفته مفكرا جديرا بهذا الاسم . كان عرفى أيضا فى شبابه مناضلا من أجل مصالح الشعب . لكنه أخفى مشاعره وخجله ورعبه عن الناس ، فابتعدت عنه أنظار الشرطة لأنه لم يتميز بمظهر الثوريين رغم حماسته للثورة فلم يعرف السجن قط ، ولهذا السبب ، فإن تجربة كريم تسمح له أن يتعلم بعض الوقائع المجهولة بالنسبة له . أثاره فضوله . زاد من ضغط يده على كتف كريم وكأنه يشجعه على متابعة كلامه .

– قص علىّ هذا .

رد كريم: حسنا . لقد رأيت الشعب الذى أرغب فى رؤيته . بمعنى أنه معجون بالحقد ويحلم بالانتقام . أردت أن أساعده فى انتقامه . كنت أعتقد أنه مستسلم للقهر . لكننى وضعت فى حسبانى أنه أكثـــر حرية منى . لايمكن أن تتخيـــل النـــكات التى ألفتها عن هذا الموضوع . عندما أردت أن أشرح لهم أننى فى السجن لأسباب سياسية . كانت كارثة ، اعتبرونى روحا ضئـــيلة أنا الذى كنت أفكر أن أعلمهم موقفى الثورى . عاملونى كعميل مدسوس من الحكومة . علمتهم الاحترام

الشخصي . ظلت الحكومة بالنسبة لهم مصدرا للمزاح ، وبكل ذكائى تعاملت مع الحكومة بجدية . ووجدت أن هذا عيب مع مظهره كشهيد بالطبقة العاملة كنت الوحيد الذى يعامل الحكومة بجدية .

علق عرفى: إنها ضربة صلفة لغرورك . اعتقد أنك كنت هناك بالغ البؤس .

– فى البداية نعم . ثم بدا لى موقفى فى قمة درجات السخرية . بدأت فى السخرية من كل شىء . فى النهاية أصبحت منشرح الصدر ، فهناك شىء يبعث على الضحك ، عليك أن تصدقنى . فتنوع هؤلاء الأشخاص الذين نقابلهم فى السجن شىء لا يصدقه عقل . كل هؤلاء الناس لديهم عن الحكومة أفكار عجيبة . فالحكومة بالنسبة لهم عبارة عن عصابة من اللوطيين . لذا كنت مندهشا لكل ما أسمعه من حولى .

– هل كان السجن بالنسبة لك تجربة فاصلة؟

– هكذا كانت البداية ، لأننى قابلت "هيكل" فيما بعد .

كان لاسم هيكل عند عرفى مكانة رفيعة . لذا سحب يده من فوق كتف الشاب وانشغل من جديد فى تأمل حذائه الرث . فكر فى المتعة التى على هيكل أن يحسها وهو يسمع اعترافات كريم حول إقامته فى السجن ، هذه الحكاية ترد بالتأكيد على حاجته الأبدية للسخرية . فقد رفض عرفى أن يترك نفسه تحت تأثير سحر الهزل الغريب لهذا العالم ، خاصة أنه يكافح ضد غواية الاعجاب به . لقد كان يعرف جيدا أن العالم محكوم

بأغبيائه ومجرميه الذين يجب عدم الاعتماد عليهم . ثم إن هذا لا يشكل له أية رغبة ، ولا أية متعة سرية ، لقد أحس بمرارة شديدة لهذا الموقف . وعلى عكس هيكل . فقد حاول أحيانا أن يعثر فى دوافع البشر على بعض الأمور الجادة أو العادلة ، وللأسف فإن الدلائل تبدو ماثلة دائما أمام هيكل ، وقد ينتصر إحدها فجأة ، لذا ليس عليه سوى أن ينتصر . لقد صُدم عرفى وهو يفتش دوما فى كافة الانشطة المنحرفة والفاسدة ، وكأنه يخشى أقل شيء حسى متأصل داخل هذه الأقنعة البهيجة ، أن يصدم بهجته . كان عرفى مجروحا دوما بهذه الأشياء الواهية . وهذا الأمل الذى يحتفظ به رغما عن كل شيء ، يحكم عليه بعزلة روحية وسط زملائه ، إنهم رجال أحبهم وأعجب بهم ، أخيرا ، قال:

– هل نكتفى إذن هذا المساء؟ هل تعتقد أنه يمكن أن يحدث شيء آخر؟

رد كريم: سوف أطبع ما يكفى كى نستطيع أن نبدأ هذه الليلة فى لصقها على جدران المدينة ، علينا أن نذهب حالا . سوف تساعدنى فى تصحيح البروفات .

– أين توجد المطبعة؟

– فى مخزن يقع فى حى الجمرك . يملكه خالد عمر . سوف يلحق بنا هناك مع هيكل فى المساء .

– هل سيأتى هيكل أيضا؟

– بالتأكيد . يجب أن يعطينا آخر التعليمات . هل تعرف أن هذه ليست سوى البداية ، وأن هناك مشاريع أخرى فى رأسه؟ لم أنم طيلة الليل وأنا أفكر فى كل هذا .

منع حماس كريم تجاه هذا العبقرى "هيكل" أن يظهر فى وجه المدرس بعض الحزن . فقد كان بالغ السعادة أن يشترك فى هذه العملية الخداعية الضخمة . فلم يعد هناك شيء آخر ماثل أمام عينيه .

قال عرفى: هناك أشياء لا أفهمها جيدا فيه .

– عمن تتكلم؟

– عن هيكل ، اسمعنى . أنا أول من يعرف قيمة هذه الإعلانات تربويا . لكننى أتساءل اذا كان هيكل يناضل ضد المحافظ فعلا . ولماذا لا يجد هيكل فى المحافظ باعثا أساسيا للبهجة ، هل يمكن أن ترد على هذا السؤال؟

– ما يهمنا هو أن يهاجم المحافظ أولا ، هذا هو هدفنا . نحن لا ننشد سوى المزاح . أليست هذه فكرتك؟

– معذرة يا أخ كريم . لكن يجب أن ننسى الضحك أحيانا . أعرف أن هذا ضعف لكننى لا أستطيع شيئا .

ورغم أنه قاوم التفكير فى هذا الأمر ، فإن كريم لم يكن يجهل شيـــئا من المتاعب التى تثير روح المدرس الحسية . فقد أصبحت أمه

مجنونة ، وهذا ليس فى الواقع سوى حالة من المتعة . لقد فهمه كريم جيدا ، كل ما يهمه ألا يجد نفسه فى حضرة العجوز المجنونة : إنها تخيفه . وعندما يأتى إلى عرفى . فإن فى كل مرة يستخدم كافة الحيل كى لا يقابلها فى طريقه . كان لديه الاحساس انها هناك تراقبها . راح يسعل كأنه يستشعر اقتراب الخطر . ورغما عنه ، أدار رأسه نحو الباب ، وسرعان ما رآها . إنها صورة العجوز المجنونة أمام عينيه . . كانت هناك واقفة أشبه بخيال مآته على الباب . امرأة عجوز تبدو كأنها هيكل عظمى ، لكنها تخفى ملامح غامضة من الفتنة . كأنها لم تأكل شيئا منذ أمد طويل . كانت تقضم كسرات خبز ، وترفض كافة الأغذية الأساسية . بدت زائغة العينين ، شعثاء الشعر ، تأملت الفصل الخاوى من التلاميذ ، والمقاعد الخالية ، تجاهلت تماما ابنها والغريب الذى معه . وللحظة ظل كريم مذهولا ، معتقدا أنه يرقب حية . ثم قام بطريقة آلية ، وحيا ذلك الهيكل المتجرد من اللحم الواقف على عتبة الباب بصوته الضعيف .

احتفظ عرفى بهدوئه . وأشار إلى كريم . وقد ثبت عينيه الضعيفتين اللتين تكادان أن تبكيا على ذلك الكائن الغريب الذى ظهر .

تقدمت العجوز نحوهما واثقة فى نفسها ، وقد تملكها فكرة قديمة لسلطة الأمومة ، فكر كريم أن يهرب ، لكنه أدرك أن الوقت قد تأخر ، لم تكن لديه رغبة فى المزاح ، وهو واثق فى هذا ، هتفت العجوز:

– أين ذهب الأطفال؟

ثم أضافت وهى تنظر إلى كريم بارتياب: لم يبق منهم سوى هذا .

وبخطوة متأهبة اتجهت نحو المنصة وجلست فوق القمطرة ، وأمسكت بيدها البارزة العظام المسطرة ، ثم أشارت بها نحو كريم:

– هيا ، ياصغيرى ، سمّع لى درسك .

كان هذا هو الجحيم بالنسبة لكريم ، ألقى نظرة توسل إلى عرفى . نظرة رجل يغرق ، ويحب الحياة كثيرا حين يموت . ولكن ضد كل التوقعات . لم يعر عرفى أى انتباه لاضطرابه . فارتدى قناعا جامدا وبدأ يتابع المشهد ببرود وكأنه شخص غريب . أربك موقف المدرس "كريم" إلى أقصى حد . فهل ينتقم منه عرفى وهو يتركه هكذا فى خضم هذا الجنون؟ أم كان ينتظر منه أن ينفجر ضاحكا مثلما اعتاد أن يفعل مع كل شىء؟ بالتأكيد ، إنه يتحداه ، هذا هو الأمر ، ولا شىء عداه .

أخيرا . فى نهاية تلك الأبدية ، قال عرفى بصوت بالغ المودة خال من الدهشة:

– أخلدى إلى النوم يا أمى .

لم تبد العجوز كأنها سمعته ، تمسكت بموقفها:

– هيا يا صغير . أنت تعطلنا؟

فهم كريم فجأة أنه كى يخرج من هذا الفخ ، فعليه أن يلعب لعبة ، وإلا يخيب أمل العجوز . تذكر نصا وطنيا حماسيا تعلمه فى طفولته . راح يتلوه بصوت أجش وهو يجلو حنجرته مرات عديدة .

راقبته العجوز بعينين زائغتين ، كأنها تتمتع بهذا النص . ورغم منظرها كساحرة ، فإنها احتفظت بسلوك مدرسة فصل واعية لمهمتها . قالت عندما انتهى كريم:

– رائع . أحييك . لقد تقدمت عن آخر مرة . سأقول لأبيك إنك تستحق النقود التى يصرفها عليك .

انحنى كريم عدة مرات ، وكأن ثناء العجوز المجنونة ثقيل جدا على خجله ، أحس بخيلاء جامد يسيطر على الموقف . نظر إلى عرفى بابتسامة منتصرة ، وكأنه يسجل بذلك تحديه وكشف عنه بشكل مبهج .

إنها الحقيقة التى يعانى منها عرفى . فجأة لم ير شيئا ، فاعتقد أن العمى أصابه، تلزمه لحظة كى يفهم سبب هذا العمى المفاجئ . فالتأثر قد ملأ عينيه بالدموع التى تخفى ألما كبيرا . امتلأ زجاج نظارته بالبخار ، رفعها ومسحها بمنديله بطريقة محمومة ، وقلبه يخفق بشدة . رأى وهو يعيدها إلى مكانها أن بطلى رواية هذا الكابوس المهيب موجودان دائما فى مكانهما ، ساكنان صامتان ، وكأنهما ينتظران منه – ومنه وحده – أن ينهى المشهد . أسرع نحو القمطر ، وأحاط كتفى أمه بذراعيه ، ودفعها فجأة ، واصطحبها نحو الباب ، تركته المجنونة العجوز يفعل وبدت كأنها

نست كل شيء ، وهى تمر على مقربة من كريم ولم تنظر اليه ، رمش كريم لآخر مرة ، ولم يتحرك إلا بعد أن خرجا من الفصل .

لم يبق وحده طويلا ، فقد عاد عرفى بسرعة ، وقد بدا متأثرا ، قال بصوت جامد:

– أرجو أن تعذرنى . فأنا عصبى فعلا .

الآن ابتعد الخطر . واستعاد كريم بهجته ، رد بصوت لهيج:

– لا عليك . كنت اتسلى . وكنت أستعيد الزمن .

رد عرفى: إنها غلطتى . كان يجب أن أحبسها بالمفتاح فى غرفتها . لكن لم تواتنى الشجاعة .

قال كريم: لا تفعل شيئا كهذا ، اسمع . هل تعرف أن شيئا رائعا قد حدث لى . لم أكن أجيد حفظ هذا الدرس وأنا صغير . وهذا هو ما طرأ على ذاكرتى ، أجد هذا رائعا . ما رأيك؟

لم يود عرفى أن يرد ، قال بكل بساطة:

– الا تود أن ترحل؟

(7)

أحسا بوطأة الحر الشديد عندما عبرا الدور الأرضى إلى الشارع الملتهب . رفع كريم سترته ووضعها على ذراعه . ثم فك أزرار ياقته . ورفع أكمامه . ثم اتخذ هيئة رجل رياضى ، لم يتبعه عرفى فى الممر . فهناك الكثير من أولياء الأمور فى الناحية . مما لا يمنعه أن يفعل مثله ، مشيا متباعدين ، لأن أقل ملامسة يمكن أن تصبح غير محتملة فى هذا الجو الخانق ، توجها نحو دروب حى الجمرك مخترقين عددا كبيرا من الحارات الخاوية ، التى توجد بها محلات قليلة ، مفتوحة وبداخلها التجارة . وقد وضع كل منهم منديله على وجهه كى يحمى فمه ، وقد تمددوا فى فترة القيلولة فوق مقاعدهم ، بدا هؤلاء النيام أشبه بجثث هامدة فى كل مرة يستدير كريم وهو يرتعد . وعلى مسافة أبعد . هناك أطفال نصف عراة يلعبون فى برك المياه . التى تنثرها رشاشات البلدية . راحوا يتقافزون بفرحة وهم يلقون لكريم دعابات حول أمهاتهم ، انتزع هذا الحادث التنهدات من الشباب . ووجد أن هذا الجيل الجديد من الأطفال يفتقد المهارة الحقة فى السباب . وأرجع هذه الخيبة لحساب النظام الجديد . ولكن الحرارة منعته أن يركز فى أفكاره المحزنة . أسرع بالهروب من هذا الفرن . فعجل الخطى وهو يجر عرفى فى طريقه .

وبعد عشرين دقيقة من هذه النزهة الهذيانية . هبت نسمة تعلن اقتراب البحر ، وراحوا يرون ، عبر فتحات المبانى ، السفن الراسية على

الرصيف ، نائمة وساكنة فوق مرساها ، توقف كريم أمام مبنى قديم مدهون باللون الأصفر وأخرج مفتاحين من جيبه ، وفتح القفل الذى يغلق مصراعى باب ضخم ، ثم قال لعرفى:

– ادخل .

ها هو المخزن الذى وصفه خالد عمر بين أيديهم يضم كمية ضخمة من مختلف البضائع . وعددا لا يحصى من الحقائب والخزائن المكدسة على الحائط . من الأرض وحتى أعلى السقف . عليهما أن يتخلصا من البضائع كى يخرجا المطبعة ذات الذراع المعدنية التى تلمع فى الظلام . لم تكن الناحية التى تم تنظيفها بكافية الاتساع . وأحس عرفى أن كل هذه الخزائن سوف تسقط على رأسه . تقدم بحذر وقد ثبت عينيه على الكوة الوحيدة المحفوفة بسياج ، يسقط عنها ضوء خافت . انها دليله الوحيد فى هذه العتمة الشديدة القادمة بعد الانفجار الأعمى من ضوء الشارع ، وعندما وصل إلى أسفل الكومة رأى أنهم وضعوا ، لخدمتهما ، مائدة ومقعدين ، وفوق المائدة لاحظ خزانة مليئة بالعديد من المطبوعات . جلس فوق أحر المقاعد . وهو يمسح وجهه بمنديله ، وأعجب بالشكل المعدنى . الذى يبدو أشبه بحيوان اسطورى وسط هذا الركام من البضائع .

دار كريم حول المطبعة وقد بدا أشبه بطفل يتسلى . وهو يمسك لعبة معقدة ، استدار نحو عرفى ، قال بكبرياء شخص أصابه الثراء فجأة:

– إنها رائعة . أليس كذلك؟ إنها تقريبا جديدة ، لقد بدا خالد عمر غنيا ، فهو لم يبخل بالنقود .

قال عرفى: اعرف . عليك أن تخبرنى عن الطريقة التى أساعدك بها

.

– ستساعدنى حالا على صياغة الملامح العامة . سوف أشرح لك كيف نتصرف ، ليست الأمور صعبة ، لكن أولا ، يجب أن أضئ النور . فلا أرى شيئا هنا .

وتوجه نحو مفتاح الكهرباء أضاء مصباحين بلا غطاء معلقين فى السقف بحبل ، فألقيا ضوءا متدفقا راح ينشر درجة ما من حرارة الخارج . قال كريم وهو يقترب من المائدة . ثم وهو يجلس على المقعد الآخر:

– هيا .

رد عرفى: تحت أمرك .

وصل هيكل فى التاسعة مساء بصحبة خالد عمر ، كان هناك أكثر من خمسمائة اعلان تصور وجه المحافظ بالزى العسكرى ، مكدسة فوق أرض المخزن . كان التاجر يرتدى بدلة خضراء ذات أزرار ورابطة عنق حمراء تعكس تأثيرا مهيبا ، فاحت رائحة البنفسج أكثر من ذى قبل . تقدم نحو كريم ، وأمسك الشاب بين ذراعيه ، وقبله على وجنتيه وهنأه على مهارته ، امتلأت دهشته بصدى عميق للصمت الذى سيطر على حى الجمرك فى هذه الساعة من الليل .

– هل فعلت كل هذا؟ بشرفى . أنت عبقرى .

توقف خالد عمر عندما رأى "هيكل" يبدأ فى قراءة نسخة من الاعلان بصوت عال ، وهو ينطق كل كلمة بحذر ، وكأنه يتلو صلاة الجنازة ، لم يستطع خالد عمر أن يكبت مشاعره وهو يسمع المديح الموجه للمحافظ ، هز رأسه بطريقة حمقاء ، ووضع يديه على صدره وكأنه يعانى من اعتلال مزاجه ، فى الحقيقة لقد بلغت درجة المكر القاتلة من هذه المهزلة الماكرة مداها ، وراح يهنئ نفسه بأنه واحد من المؤسسين . قال هيكل عندما انتهى من القراءة:

– هذا البورتريه بليغ بما فيه الكفاية . وأنا أنحنى أمام كاتب التعليق . سوف ينتحر صديقنا المحافظ .

ولأول مرة منذ أن دخل المخزن ، نظر إلى عرفى .

تلقى عرفى التهنئة بشىء ما من الامتنان ، وكأنه قادر على أن يساهم دائما فى متعة هيكل الذى تصوره مذنبا ، وفى نفس الوقت أن يخون القضية التى يعمل فى خدمتها ، ابتسم كى يبين حساسيته لظهور هيكل . ولكن هذا بدأ يخترق المرارة الماثلة خلف هذه الابتسامة . اكتسى وجهه بتعبير ملئ بالتهجم ، بدأ يفكر للحظة . ثم اقترب من ناظر المدرسة .

– أنت تعرف كم أحبك . ، يا أخى عرفى . ولكننى اعترف لك أن فيك شيئا ما يقلقنى . هل أنت مريض . كم سأكون آسفا .

أحس بكل وضوح ، أن عرفى متأثر ومرتبك . لكنه سرعان ما تماسك . وفهم أن هيكل يبدى تلميحا وهو يستعلم عن صحته . وأنه بشكل غير مباشر . يسأله عن أخبار أمه ، هذه الأم التى أصبحت سببا لعذابه ، لا . لم يستطع هيكل أن يتعرف حقيقة نواياه . فهو يراها دائما واضحة . فى كل مرة يأتى إلى بيته . لا يفوته أن يزوره فى حجرة العجوز ، قيل إنه لا يأتى إلا من أجلها . إنه يكتسى دائما بهذا الشكل المهيب الذى يتخذه خلال هذه اللحظة ، لكنه يتصرف نحو المجنونة بأدب جم . ويتكلم كسيد مهذب ، إنه شئ غريب فالمجنونة تتصرف بغرور وتبدو متأنقة وتناديه بالأمير ، إنه أمر غريب لا يستطيع عرفى أن يدرك آليته ويتذكره بخوف غريب ، انتهى بأن تساءل إذا كانت عاطفة هيكل تسير فى جراها الطبيعى . وهل هو نفسه مجنونا؟ أجاب:

– أنا على مايرام .

تأمله هيكل: ومع ذلك تبدو بالغ التعب .

– لقد عملت كثيرا . أنت تعرف أننى أدير المدرسة وحدى .

– أفهم . ولكن لماذا هذه المرارة؟ ياعزيزى عرفى أنت تعرف شعورى نحوك . ولا أحب أن تكون بيننا أقل شائبة من الغموض .

– أين ترى المرارة؟

– سلوكك ليس هو نفسه ، فأنت تعطينى الإحساس أنك لست على ما يرام . هل تجد نفسك متوافقا مع مشاريعنا؟

قال عرفى وقد بدا عليه كأنه تلميذ يشوبه الفتور: أنا أشاركك أفكارك تماما ، لو كانت المرارة تبدو علىّ فإنها لا تتعلق بمشاريعنا ، بل بأمر شخصى .

– اذن اسمعنى . هذه الإعلانات التى ستعلق فوق جدران المدينة سوف تثير الدهشة . وسوف يتساءل رجال النظام عما إذا كانت هذه الإعلانات ليست من عمل المحافظ . سيكون هناك خلط مرعب . سوف نملأ اركان المدينة بهذه الإعلانات . ثم نطبع المزيد . وبدءا من الآن ، نحن مكلفون لعبادة المحافظ . وسيبدو هذا فى حديثنا إلى الناس . هل يمكن أن أعتمد عليك؟

لم يكن أمام عرفى وقت للرد . لأنه سمع فجأة ضحكة حادة انطلقت من خالد عمر ، الجالس فوق مقعده . لقد سمع كريم وهو يعيد عليه قراءة نص الإلان . لم يتمالك التاجر نفسه وهو يسمع هذا التقريظ ، وراح يكرره فى كل لحظة لصديقه الذى بدا سعيدا بإرضائه . نظر عرفى إلى كريم وتذكر مشهد المدرسة بين الشاب وأمه ، وأحس بالخزى . فهل سيحكى كريم عن هذا لهيكل؟ بلا أدنى شك سوف يتصرف كمنتصر . أحس عرفى بالبرودة فى قلبه . إنه لا يكن أى مرارة ضد السيد هيكل . وإعجابه به يمكن أن يجعله يضحى بحياته لمثل هذا الرجل . هيكل كما هو دائما ، بسلوكه وأساليبه الراقية . لم تزعزع أى مأساة شخصية بروده الشديد . رمقه عرفى فى تناقضه الرائع المؤسى . أحس أنه وحده على وشك أن يتعلق بطرف هذا العالم الهزلى المبهج . حيث تساءل

هيكل . وماذا لو أن هذا الخيط تمزق؟ سأل هيكل موجها كلامه إلى كريم:

– هل استعددت لهذه الليلة؟

رد كريم: نعم ، كل الاستعداد . لقد واعدت بعض الزملاء الذين عليهم الانضمام إلينا . سنشكل مجموعات عديدة وسنتقاسم أحياء المدينة.

– حسن انت رائع .

– أفكر فى الإعلانات التى ألصقتها منذ بضع سنوات والتى كانت تتكلم عن الحكومة بشكل سئ .

– هذه المرة ستتكلم عن حسناتها . تغير الأمر قليلا .

اقترح خالد عمر: سوف أصحبك . . أرغب فى لصق واحد عل الأقل .

قال هيكل: من الأفضل لا . .

لم يقل لماذا ، لكنه فكر فى أن الضجة والضحك المنطلقين من خالد عمر تجذب الانتباه حوله . . قال: معذرة ، لأننى مضطر للانصراف .

توجه نحو كومة من الإعلانات المكدسة فوق الأرض . وأمسك واحدة . وراح يتأملها طويلا . ثم ثناها ، ودسها فى جيب سترته ، وقال قد اكتسى بالغموض:

– ربما أحتاج إليها هذا المساء ، السلام عليكم .

وخرج من المخزن وســـار فى الشوارع الخاوية . وهو يتنـــسم رائحة البحر الحية .

(8)

اختلطت رائحة البحر بالعطر الذى تضعه سعاد على جسدها النحيف ذى التكوين البالغ الأنوثة . كانت تتأرجح فوق الرمل ، وهى تتسلى بتأمل النجوم من زاوية لا يمكن لأحد أن يراها ، انها موجودة على البلاج ، عند طرف منتزه الكازينو الخاوى . فى منطقة معتمة بعيدة عن الأضواء . معدة للرقص فى وسط الهواء . وصلت موسيقى الرقص اليها وقد تخلصت من إيقاعها الخافت آخذة شكلا شبحيا . وواقعيا فى الركن المهجور من البلاج . تأهبت للحظة . الوجه تكسوه ملامح طفولية . جمعت حفنة من الرمل وجعلتها تنساب ببطء فوق أسفل بطنها . وهى تحس بسعادة غريزية وتشعر بهذا الثقل الذى يرزح فوقها ثانية بثانية . وقد تاقت لبعض المداعبات التى سبق أن جربتها مرات عديدة . تأوهت ، كى تصل إلى ذروة الشهوة ، وهى تتعلق بالمتعة التى انغمست فيها ، فجأة توقفت . ألقت كمية من الرمال بين ساقيها ثم راحت تلطخ ردائها واستدارت نحو أضواء الرقص .

كان هذا هو العالم الغريب والهزلى الذى دخلت فيه بهذه النزهة الخاوية ، عالم بعيد تماما ، أحسست أنه موجود على مسافة ألاف الكيلومترات ، نظرت إلى نجم آخر ، والى صالة الرقص وسط ديكور من النباتات الخضراء ، ومصبات مياه وأشجار نخيل قزمة ، الراقصون يتحركون كأنهم عرائس يحركهم رجل مجنون . راقبت الجالس إلى جوار

المحافظ فى مقصورة منفصلة عن بقية الحاضرين ، كان المحافظ يخطب أمام أبيها ورجلين آخرين لا تعرفهما ، ليس عليهما سوى أن يهزا رأسيهما علامة على الموافقة ، هناك مغنية مشهورة فى البلد متقدمة فى العمر . يقال أنها عشيقة المحافظ منذ أشهر . أنها امرأة مسنة ضخمة . تبدو كمومياء فرعونية ، تسمى أم خلدون ، فلاشك أن وجودها مع بعض نبلاء المدينة يمنعهم من السقوط فى دائرة النسيان ، أن يكون المرء عاشقا لمغنية شهيرة يعنى استعراضا لقدراته ، فهم يزعمون أنها تساوى الكثير لهؤلاء الأثرياء الجدد .

فى كل مرة تراها سعاد تتساءل كيف يمكن لرجل شديد الفظاظة . شديد التعلق بالجمال أن يمارس الحب مع هذا المخلوق المجعد ذى اللحم الرخو والشديد الغرور؟ لقد كانت المطربة عشيقة لأبيها بعض الوقت . وتحتفظ الفتاة لهذه الفترة ببعض الذكريات المؤلمة ، فإن حقدها على أبيها قد صاحبه احتقار غير محتمل ، فلم تسمح له أن يقترب منها ، ولا أن يلمسها ، بدا لها وكأنه مصاب بمرض معد ، وأنه يفوح برائحة العجوز . الأقرب لرائحة العفانة . وبعد أن قطع أبوها صلته بالمغنية . لم تعد تحتمل رؤيته إلا نافرة .

كان أبوها من النوع الذى يمثل البرجوازية الشرهة النهمة التى تسيطر على المدينة ، وكأنها عصابة متعفنة من أبناء آوى . لم يصادق إلا أناس على طرازه . ولكن كل الناس حقراء . حتى المحافظ . فإنه يمثل تميزا بوقاحته وخيلائه ، وطوال سنوات بدت سعاد ذليلة ، راح أبوها

يمارس شتائمه عليها كأنه جلاد . لا شيء يقاوم أحكامه القاطعة ، وانفجارات غضبه العالى . بصفة عامة فهذه الانفجارات بدت واضحة خلال حفلات الاستقبال التى يقيمها فى فيلته الفخمة . والواسعة كأنها قصر . والتى تعج بخدم عديدين ، بدا فى استقبال ضيوفه كشخص يتحمل الإهانات ويسمح لنفسه أن ينتقم فى الوقت المناسب ثم يعود إلى ضيوفه الذين يصيبهم الخجل من سلوكهم ، يدير الاحاديث المتعلقة بالأغمال السياسية ، لا يجرؤ أحد أن يعارضه ، حيث أن حدة ردوده سريعة ، وطريقته فى إدارة الحديث وهو يوجه السباب لمحدثيه تجعل من منزله أغلى الأمكنة فى مجتمع المدينة . فكل واحد يأتى لرؤية كيف يهان الآخرون ، ومع ذلك كان يعامل ابنته بقدر من الاحترام . يكاد يقارب الخوف . كانت تخيفه قليلا بمزاجها الثورى . فهى تبدو متمردة . كل ما كان يطلبه منها هو ألا تثير له أى فضيحة . كان يخاف أن يراها وقد أصبحت يوما "حاملا" ، يبدو كأنه يخشى هذا الاحتمال مثل أكثر النكبات المشئومة . كانت سعاد تعرف أنه قلق من هذا الموضوع . تقرأ الإضطراب فى عينيه كل يوم عندما تنظر إلى بطنها . كأنه ينتظر أن تنفجر الفضيحة . لكنه ذات مرة ادرك هذا الأمر فلم يود أن يعرف شيئا وكان عليه ألا يجهل كل شيء عنها .

انعكس خيال هيكل على الأضواء الراقصة ، ونظرت اليه يتقدم نحو المنتزه طويلا ورقيقا . رائع مثل شبح غامض قادم من العدم ، قامت بفئة ، لكنها لم يجر نحوه ، انتظرت بلا جدوى أن ترتمة بين ذراعية ، راحت تستند عليه وهى تقفز وتطلق تنهيدة عميقة كطفل حصل على

لعبة غريبة الشكل ولا يمكن أن يؤمن بحظه ، راح هيكل يتحمل مداعباتها الرقيقة ، هذه العاشقة الصغيرة المهووسة . كان حساسا لهذا الافتتان ولهذا التدفق من الكلمات غير المفهومة . أشبه بتمتمات غريق عاد إلى الحياة . لم تكف الفتاة عن تقبيله ، والاحتكاك به وهى تنقل بكل حدة على جسده ، راغبة أن تجره معها فوق الرمل . ولكن "هيكل" تحرر من عناقها وأبعدها برقة ، وقال:

– هيا ياصغيرتى ، ليس هذا وقته .

تأوهت: أنت قاس معى .

اكتسى وجهها بتعبير مرتبك . وكأنها على وشك البكاء . ملامح فتاة صغيرة محبطة ، ضحية لظلم الكبار ، بطريقة تلعب فيها دور البائسة الباحثة عن الحنان ، لم تكن تعرف مطلقا فى أى لحظة أحبته . إنه دائما ساكن ، حتى فى مشاعره الأكثر جموحا ، يتعامل بنفس هذه الابتسامة الماكرة فوق شفتيه ، وهذه النظرة المتكبرة ، إنها ليست بعيدة عنه ، ولكن على العكس ، فإنها مليئة بالجرأة ، والتحدى ، رددت وهى تسلم صدرها لأصابعه الجامدة:

– أجل . أنت قاس معى .

وراح هيكل يبتسم .

قال وهو يمسكها بذراعه ويمشى بها بطول الشاطئ .

– هيا . لنوقف هذه الملهاة .

فى الحقيقة ، فإنه لم يرغب فى ممارسة الحب معها فوق الرمل حتى لا يتلف ملابسه . فهو فى حاجة لان يظهر لتوه فى صالة القمار كى يقوم بمهمته . لم يود أن يراه أحد بزى غير مهندم ، لكن من ناحية أخرى فهو اآن مهووس بشىء آخر غير الرغبة الشهوانية ، إنها الخطة الجهنمية المدبرة ضد المحافظ ، وردود الفعل التى سيحدثها تعليق الاعلانات فوق جدران المدينة .

توقفا قريبا من حاجز يؤدى إلى أوتاد خشبية تفصل الشاطئ الخاص عن الكازينو . جلست سعاد فوق الحبل المشدود وراحت تتأرجح ، ويبقى هيكل واقفا ينظر اليها ، ثم اتخذ مكانا إلى جوار الفتاة التى راحت تطال قامته . فى هذا الركن كانت الظلمات أشد عتمة ، وكان الضوء الوحيد قادما من ناحية البحر الذى تنعكس عليه أشعة النجوم . أما الموسيقى الراقصة فقد خلفت صمتا شديدا وغرقت مبانى الكازينو المضيئة فى نوع من البعاد ، أحس هيكل أنه الحى الوحيد فى عالم من العدم . تملكته فجأة مشاعر غريبة من القوة ، فضم سعاد اليه ، وكأنه يجرب قوته فى الدفاع عن نفسه ضد الموت بشكل ميئوس منه .

فجأة دفعها ، وسألها:

– هل أبوك هناك؟

– نعم إنه فى صحبة المحافظ . كيف تسير الأمور هذا المساء؟

– حسن جدا . فالاعلانات ستكون فوق جدران المدينة صباح الغد وستكون صورة وجه المحافظ ذات ملامح خاصة ، ستكون أشد فتكا من النص المكتوب معها ، حاولى أن تقاربى .

قالت ، وقد علتها تكشيرة حزينة:

– أنت لا تراني إلا من أجل هذا . فلست لك سوى جاسوسة للمعلومات . وأنت لست سوى مجرم فاسق .

حقا . فسعاد تخدمه من أجل التجسس على المحافظ طوال لقاءات عديدة عقدها هذا مع أبيها . فالمحافظ يعتبرها فتاة صغيرة ولا يهتم قط فى البوح ، أثناء وجودها ، بالأسرار البالغة الأهمية . لدرجة أنه قد جاء وقت أثارت أحاديث الرجلين تثاؤب الفتاة ، فتعبت من سماعهما وهما يتناقشان حول كل الموضوعات الجادة التى تتعلق بأمور المدينة . ولكن منذ أن تعرفت على هيكل راحت تنتاها غريزة فضول لكل ما يتعلق بالمحافظ فتركت نفسها تنساب فى كل مرة تروح تبلغ الشاب ببعض التفصيلات حول مشاريع المحافظ وخططه .

قامت . ووقفت أمامه . وسألت فى توسل:

– هل تحبنى؟

بدا السؤال التافة فى فم الصغيرة ذا معنى حاد ، فقد عبس هيكل ، ورفض أن يتركها تنغمس فى هذا المستنقع الشجى بالحب . فكل ما يشعر به نحوها ليس له أى علاقة بهذا الشعور الجارف الذى يبدو أنها

تكنه له . فهى تحس نحوه بعاطفة تبدو كأنها من مفاجآت الروتين . ولكن كيف تفسر له كافة التناقضات؟ انها واعية لذلك تماما ، وسيكون من الحفاوة بالنسبة له أن يخدعها ، لأنها امرأة ولا يمكن أن يجعلها تتجاهل طبيعتها . أجاب بابتسامة مريرة ليس بسبب كذباته ولكن بسبب الندم الذى عليه أن يجربه لة افتقدها ذات يوم:

– طبعا . أحبك .

صاحت هاتفة:

– ترى أى رجل أحببته ، رجل مثلك يمكن فقط أن يجعلنى أشعر بوجودى هذا الأمر يبدو لى كأنه معجزة .

وقفزت فوق الرمل . مشدوهة وسعيدة ، جذبها هيكل وجعلها تجلس قريبة منه فوق الحبل ، ثم وضع يده على عنق الفتاة ، وقال:

– اسمعى . عندى مهمة لك . ففى المرة القادمة التى ستأتين فيها لمقابلتى احضرى آلة كاتبة . سوف أمليك رسالة .

– ماذا ستعد لى . ملهاة جديدة؟

– حسن ، عندى النية أن أرسل لكل الصحف خطابا دوريا ، أسألهم فيها أن يفتحوا باب الاشتراك لإقامة تمثال للمحافظ .

ضربت سهاد بيديها عندما نطق اقتراحه ، أرادت أن تقوم ، ولكن "هيكل" أمسكها وأجبرها أن تظل هادئة . وردد:

– انتظرى . ليس هذا كل شىء . هل تعرفين من سيوقع هذا الخطاب؟ سوف يحمل توقيع أبيك ، أخلص الأصدقاء للمحافظ .

– أنت شيطان . آه ، كم أحبك .

وانحنت على رقبته وغطت وجهه بقبلات سريعة .

– يلزمنى توقيع أبيك كى يمكن أن أقلده . هل يمكن أن تدبرى لى هذا؟

– هذا أمر بالغ البساطة . سأطلب منه أن يحرر لى شيكا . فهذه ليست أول مرة ، فهو يفعل ذلك دائما عندما يعطينى النقود .

هتف هيكل: رائع . كم أنا فخور بك . سوف تطلبين منه شيكا على بياض وسوف استخدمه كى أرسله فى أحد خطاباتى . سأختار الصحيفة الأكثر انتشارا فى المدينة ، وسيجعل الشيك الأمر مضمونا أكثر . فالصحف الأخرى لن تثير أية فضائح ، سوف ينشرون الخطاب دون مجاملة .

اهتزت سعاد فجأة فى ضحك حاد يملؤه المكر ، ضحكة امرأة تعد لانتقامها:

– آه . . الغبى لو كان يعرف .

سأل هيكل: من؟

– أبى . هل تعتقد أنه سوف ينتحر؟ آه . كم أتمنى ذلك ، كم أتمنى ذلك!!

أجاب هيكل: موقفك الشخصى لا يهمنى . ويجب أن تفهمى ذلك.

وانخرط فى ضحك الفتاة حقد حقيقى ، لأنه أدخل كل الفساد الذى يفصله عنها . فالنساء يصبن بالحب لدرجة الهذيان . وعند الكراهية يمتزج العنف بالغباء . كأن الحقد شعور مفتقد تماما ، فازدراؤه العميق للبشرية يمنعه أن يعطى أى أهمية لأحد من المهرجين الذين يقومون ببطولة المسرحية . فى هذا العالم المزين بواقعهم . نظر إلى وجه الفتاة الجامد الذى يبدو كأنه ينتظر منه كلمة أو مداعبة كى يبتهج . لكنه ظل صامتا . استولت عليه ذكرى وجه آخر . وجه ملئ بالصفاء . يمكن لكل حقد أن يندثر تماما أمامه . كل الرقة المتجمعة والمتدفقة فى هذا الوجه المجنون العجوز . أو عرفى ، وجنونها الذى يجعله غريبا ، انها تحلق فى أعلى هذا العالم الخارجى . بنقاء خفى ، لا تلطخه كراهية . هو الذى ليس بيده شىء ، انه يغير من عرفى لأن لديه هذه الأم المجنونة . هذا الكيان الهارب فى حضيض الأحياء الشعبية ، ناظر المدرسة الذى يملك الشىء الوحيد الذى يمكن إثارته ومس شغافه . إنه شىء ثمين للغاية . يضطره أن يسمح لعرفى بمشاركته التغيير ، لديه اليقين أن صديقه لن يقدر على فهم معنى هذا الإجلال الفريد . لقد كان يعرف أن عرفى يؤنبه فى داخله . لأنه يحبس نفسه دائما مع المجنونة العجوز فى غرفتها ، انه يشك بأن لديه

أفكارا موسوسة تجاه أمه . كيف يمكنه أن يشك أن هذه هى اللحظات الوحيدة التى يمكن لهيكل أن يجرب شعورا مؤكدا . أصبح من المعجز الشعور بالامتنان . والرقة ، إنه قادر على التضحية بلا حدود أمام هذه العجوز المجنونة . هذا الحطام الانسانى . أحس بالصمم فى داخله . دموع الرقة والحب ، لكنه يفضل أن يثير شكوك عرفى المرعبة . بدلا من أن يعبر له عن الرقة المتناهية لهذه اللحظات التى يتأمل فيها وجه أمه الحنون . هذا الموقف المبهم يثير شجنه لدرجة تجعله يهرب من زيارة العجوز المجنونة . يكفيه الآن أن يتذكر ملامحها ، ونظراتها الطفولية الشهيرة ، كى يصل إلى أنين النفس الذى يسبب سعادته .

أحست سعاد بغريزتها أن فى صمت هيكل نذيرا سيئا . اهتزت على الحبل ، وتململت ، وتنهدت بقلق وهى تراه عائدا اليها . تأتى الموسيقى من بعيد ، خفيفة ، وصافية فى الليل . انتهت بأن قالت:

– هيا نذهب لنرقص ، فأبى مشغول جدا مع المحافظ . ولن يلاحظ شيئا . فأنا لم أرقص معك منذ فترة طويلة .

قال هيكل: لا ، مستحيل ، الحقى بأبيك . فسوف أتوجه إلى صالة اللعب .

– هل سأقابلك فيما بعد؟

– سأجئ لحظة الرقص . لكننى لن أبقى طويلا . فلدىّ ما أعمله هذا المساء .

قالت وهى تمط شفتيها وتطلق تكشيرة مأساوية: أعرف ماسوف تفعل .

قال هيكل ضاحكا: لاتكونى غيوره .

– لست غيورة الآن ، ولكن أحذرك أننى سأصبح هكذا عندما أكبر .

قال هيكل مداعبا: لكنك الآن كبيرة فأنت فى السابعة عشرة تقريبا .

– أيها القذر .

كادت أن تجهش . ولكن هيكل تأهب للذهاب ، وقفت سعاد فجأة وتعلقت به . وهى تحاول أن تخربشه ، وأن تقبله فى نفس الوقت ، وبكثير من البراءة ، وبكثير من الوعود الماكرة ، تمكن من التخلص من الفتاة . ثم عبر المنتزه وعرج نحو اليسار فى اتجاه المبنى المخصص لصالة الألعاب .

كان مبنى من المرمر ، مزين بالموزاييك ، أشبه فى هندسته المعمارية الثرية بمقبرة هندية ، دخل هيكل الصالة بخطوات سريعة ومرحة ، كمقامر يود ألا يتأخر عن قدره ، التزم بصمت مهيب ، ملئ بالمعاناة . ألقى مسئول اللعب البلى فى طبق الروليت . كان دوران البلى يبدو أشبه بابتسامة خبيثة ، سادت الصالة تماما ، فى هذا الجو الحار ، كانت الحرارة ملتهبة فلا أى نسمة تهب من الفتحات الواسعة التى تطل على البحر .

دقق هيكل فى مجموعات المقامرين المتلاصقين حول المائدة الطويلة ، ولكن أحدا لم يستدر فى مكانه ، كانوا منهمكين تماما فى اللعب لدرجة أنه لا يمكن لزلزال أن يترعهم من النأمل فى الروليت ، ظل دوران البلى مسموعا حتى عندما بلغ أطراف الصالة ، إلى جوار البار الضخم ، حيث يوجد ممر يؤدى إلى دورات المياه ، كان المكان خاويا . مد هيكل أذنه نحو الممر كى يتأكد أن أحدا لا يتبعه ، لم يسمع أى ضجة ، ولكن فقط حركة صماء تأتى من بعيد ، بلا شك فالبلى بدأت تستقر ، تحرك اللاعبون من معاناقم . حانت اللحظة التى بدت له ملائمة كى يبدأ العمل . ويسرعة أخرج الإعلان من جيبه وبواسطة أنبوبة لصق راح يلصقها على الحائط ، بالضبط أعلى صف المبولات . بدا وجه المحافظ كأنه هو يرقب فتحات سراويل زبائن الكازينو . انه أمر يثير السخرية حقا . تراجع هيكل وهو معجب بعمله ، ثم غمرته فرحة ماكرة ، هنا سمع خطوات فى الممر . قد ينعقد الأمر . اذا رآه شخص الآن ، سوف يبدو كشخص مشبوه ، أو يتصرف كأنه لا يعرف ، لن يهرب من ظلام ، ثم انسل من الناحية الخلفية وهو يدفع الباب ، اقتربت الخطوات الثقيلة الخرقاء ، دخل رجل المرحاض . وفى الضوء القادم من الممر ، رأى هيكل رجلا ضخما يكاد يترنح ، يتجه يمينه نحو المبولة ، إنه رجل متقدم فى السن ، شديد البدانة ، بدا للوهلة الأولى وكأنه هيكل لا يعرفه ، أطلق تنهيدة وبدا ثملا . تماسك هيكل . واستعاد أنفاسه ، فهو لايجرؤ أن يتحرك ، انتظر أن ينشغل الرجل فى التبول لكى يأخذ فرصته فى الهروب ، فالرجل الآن يدير له ظهره . وقد باعد بين ساقيه ، انعكس ظله الثقيل

على الخزف الأبيض ، زفر وهو يحاول فتح أزرار سرواله ، كان ثملا بما فيه الكفاية لدرجة أنه لم يلحظ انطفاء النور ، وراح هيكل يهنئ نفسه عندما أخذ الرجل فجأة يطلق سبابا بذيئا ضد إدارة الكازينو . رغم سكرته ، مال بكل خفة نحو مفتاح النور ، وبعد برهة عاد الضوء . ولكن قبل أن يستطيع هيكل إصدار أى حركة ، رأى الرجل وجه المحافظ على الحائط . انتابه ذعر للحظة . ثم أطلق صرخة ضاحكة ساخرة ، خنقت حنجرته وانهار وهو يهز يديه فوق رأسه وكأنه سيطلب النجدة من كل الدنيا ، انتفض هيكل ، وهو يفاجئ بما حدث ، اقترب ببطء من الرجل الممدد فوق الأرض وقد انفتح السروال ، بدت كل هذه الكتلة الضخمة المتمددة كأنها الجثة . لقد مات . جحظت عيناه وهما تتأملان وجه المحافظ فى إلحاح باد ، وبدا لهيكل أن للرجلين مظهرا ساخرا بطريقة غريبة . ترك المكان وقد فهم تماما سبب هذه الخصومة اللدودة والغامضة بين الرجل والمحافظ .

كان الصوت الذى ملأ صالة القمار قد جعل "هيكل" يصدق أن نبأ وفاة المجهول ذاع بين اللاعبين . ولكنه سرعان ما أدرك خطأه . فقد كسب واحدا من اللاعبين مبلغا كبيرا . وكان هذا حدثا سعيدا بالمصادفة أثار هياجا عاما . انتهز هيكل هذا الهياج ، لم ينتبه أحد اليه وهو يعبر الصالة ويخرج ال المنتزه . . وعندما وصل إلى صالة الرقص ، اتخذ مائدة خاوية قريبة من نخلة صغيرة وجلس ينتظر الأحداث .

بلا شك ، فالرجل أصابته نوبة قلبية مفاجأة عندما شاهد صورة المحافظ . لم يكن هذا الموت مدرجا فى البرنامج . لكن "هيكل" راح يعزى نفسه ، فحسب رأيه فإن هذا الحادث نتاج لقدرية تعرف أحيانا كيف تبدو مثيرة للسخف . وهكذا ، فإن أول شخص رأى الاعلان سرعان ما سقط ميتا ، "آمل لا يتبعه الآخرون فى الدرب . فسوف يسبب هذا مجزرة" . هكذا فكر هيكل ، فليس هذا ما يرغبه ، ظل منتبها لأقل بادرة، راح يتأمل بكل حدة تعاطف هذا الجمهور البرجوازى المغرور المختال بسماته غير المحتملة . حقا الكازينو هو المكان الأمثل لهم ، فإليه يأتى عليه القوم وأثرياء المدينة . هنا حيث يعتمل الغباء الغريب لهذا الحشد ، مما يجعله يؤمن بخيالهم المريض . لا يمكن أن يكون هذا حقيقة . كل هؤلاء الناس أصابتهم بشاعة غير محتملة ، نوع من القبح اللامتناهى ، يسمح ببصيص من الضوء لأفكار غير معقولة . إنهم لا يميلون إلى التسلية . جامدون فى أدوارهم ، يعيشون نفس الملهاة المريرة التى تدور فى مجهول . فالبشرية بشعة ، وقد اقتنع هيكل بذلك منذ أمد طويل . وهو عند هذا الحد يعتبرها شكلا من أشكال الاستفزاز .

أدار عينيه نحو مقصورة المحافظ . وكأنه يدير رأسه نحو شىء مبهج . رأى سعاد فى مقصورة أبيها والمحافظ ، أما الآخرون الذين كانوا معهم فقد اختفوا حتى عشيقة المحافظ . المطربة التى لعلها توجهت إلى عملها فى ملهى ليلى ، كانت الفتاة تجلس فوق مسند المقعد الذى يشغله المحافظ وتبدو كأنها تتوسل اليه أن يمنحها رضاه . إنها تستخدم كل سحر أنوثتها المبكرة ، فانحنت نحوه . وراحت تدلك له ظهره بيد رقيقة كأنها اعتادت

على ذلك كى تمنحه فرصة ، بدا المحافظ مسلوب الارادة بشكل مرعب . يدافع عن نفسه كشيطان ضد محاولات إغراء الصبية ، لم يفهم هيكل أن سعاد تحاول أن تنال منه . أثاره هذا . ثم تابعت عملها للحظة بدافع التسلية .

كان المحافظ ينتمى إلى هذه الطبقة من الشخصيات العامة الذين ليس لديهم أى شيء يفعلونه . فخيالهم محفوف بالعمل الذى تنجزه الطبيعة . إنه قصير القامة ، مكرش ، الساقان ملتويان . الأنف أفطس ، العينان كبيرتان مستديرتان جاحظتان ، تبدوان كأنهما تنويان الخروج من محجريهما ، وعندما ينظر إلى محدثه . فإن هذا الأخير يحس أنه كبر آلاف المرات ، لأن هذه الأشياء المتوحشة البارزة ، الجاثمة فوقه تبدو كأنها ميكروبات معدية . فى الحقيقة فإن المحافظ يحاول أن يبدو يقظا فى مدينة يرغب كل سكانها فى النوم . لا يمكن أن نقول أنه يرى كل ما يمر من حوله . وأنه يتصرف كنسر ، كان عليه أن يكسو وجهه بالنظرة المعروفة عن "ملك الجو" ، إنه أحد أصدقاء الوزير فى السلاح ، الذى عينه فى وظيفة المحافظ . كانت تلك فرصة كى ينتقم لكل سنوات الخمول . فراح يحكم المدينة وكأنها خزانة مجندين . ففى كل يوم يتخيل ممنوعات جديدة تمس الشعب الفقير . يقال أنه جرب كافة المخاطر . . الشيء الوحيد الذى لم يجرؤ أن يلمسه هو تحريم لعبة الطاولة فى المقاهى . يقال إنه يفكر فى ذلك حثيثا ، ولكن حاشيته حاولت أن تثنيه عن عزمه ، وأكدت له أن منع لعب الطاولة سيثير حالة من ردود الأفعال ويستوجب موافقة من الحكومة بالعاصمة .

الآن ، وقفت سعاد قريبة من مقعد المحافظ وسحبته من كمه ، أشارت له إلى حلقة الرقص . سرعان ما أدرك هيكل سبب توسلاتها ، فالفتاة توسلت للمحافظ أن يرقص معها . ولكن المحافظ رفض تماما ، حاول أن يتخلص من ذراعها . لمع فى وجهه القزم رعب ساخر ، أدرك هيكل أن سعاد تفعل كل ما بوسعها كى تقدم له عرضا رائعا . وفى لحظة نظرت تجاهه . وابتسامتها اللئيمة على شفتيها . كأنها تحاول أن تلفت نظره أنها تهب نفسها لفتنتها . كان على هيكل أن يسمح لها بمراقصة المحافظ . أعطت ابتسامته للفتاة بادرة تشجيع . ثم راح ينظر إلى الجمهور.

خلال بضع دقائق ، كان الجو قد تغير تماما ، لوحظ أن هناك حركة غير ملموسة من العصبية بين الأشخاص . كان الندلاء وموظفوا الفندق يروحون ويجيئون بحركات مليئة بالتوتر قام العديد من الزبائن ، وبسرعة اتجهوا نحو صالة اللعب . أحس هيكل من حوله ببوادر توتر خفية . وكأن هناك ريح غضب غامضة . راح الأشخاص الذين كانوا يتكلمون بصوت عال يتهامسون بينما انخرس البعض الآخر تماما ، استمر الاوركسترا فى عزفه الذى يصم الآذان ، وفجأة تراجع إيقاع الموسيقيين الذين يفترض أنهم قد أدركوا الكارثة القادمة من البحر ، أحس هيكل أن الأمر تم اكتشافه: جثة المجهول الميت فى دورة المياه . انتابه وخز خفيف فى قلبه لما سوف يحدث .

– سلام عليك يا هيكل .

كان للشاب الذى يقف أمامه جمال الغزال البرى . وجهه الرقيق يقف فوق رقبة طويلة كشفت استدارة وملاحة ملامحه الدقيقة . كانت له عينان سوداوان واسعتان . ورموش مخملية تترك حولها تأثيرا رائعا . وجذابا للنساء المتقدمات فى السن وصاحبات الثروات . اسمه رياض ومن طموحاته أن يحظى بصداقة هيكل . فهو معجب به بلا حدود ، حاول أن يثير انتباهه عندما وجد نفسه مع مخاطبه فى الممر . لم يود هيكل صحبته قط . وراح يباعد المسافة بينهما ولكن المصلحة التى تربط بين سكان المدينة . تجعله مضطرا إلى وساطة رياض . انه يحمل فى قلبه كل أنواع الخنازير والنوادر السخيفة التى تنطلق حول الحكومة العليا . كان رياض يعرض بلا حياء علاقاته معتقدا أن هيكل ينبهر بالتسهيلات التى تتم فى الأوساط الأكثر رقيا . لم تنتابه قط فكرة أن هيكل يتقيأ من هؤلاء الرعاع ولا يهتم سوى بإرضاء مزاجه السادى . قال وهو يجلس حول مائدة هيكل:

– هل عرفت الخبر؟

– لا . ولكن آمل أن تخبرنى .

أخذ رياض وقتا . تضاربت رموشه . واستدارت رقبته وكأنه يحب أن يفعل ذلك من أجل إغراء محدثه ، ادرك أن عليه أن يسرع ، ففى ظل هذه الظروف هناك مخاطرة . علم هيكل بوقائع الخبر المشئوم دقيقة بدقيقة . وهكذا حصل على المعلومات بلا مقابل . كان من الصعب عليه أن يتكتم الأمر . مما مكنه من تحول خفيف فى اللهجة:

– حسنا ، اذن فالمحافظ سيكون مسرورا .

سأل هيكل: لماذا؟ ألم ينل بعد ما يستحقه؟

علق رياض أخيرا: لقد مات عدوه اللدود أنت تعرفه بالتأكيد ، انه عبد الحليم مكرم . رجل الصناعة الثرى . لقد وقع بكل ثقله فى دورة مياه صالة القمار .

قال هيكل: لقد نال ما يستحق . يا له من غبى . كيف يمكن أن يكون عدوا للمحافظ وهو الرجل الثرى .

– ألست فى الدنيا؟ فالمحافظ خطف منه عشيقته منذ بضعة أشهر . انها المغنية العجوز أم خلدون . فالمحافظ مرتبط بها فى هذه الأيام .

– ولكن الناس كلها يزعمون أن عبد الحليم فاقد ارجولة .

– لا يهم . كان لا يدرى أن الناس تعرف ذلك ، بل على العكس كان واثقا أن المحافظ قد سلب المغنية منه ، انها امرأة غير جميلة . ومع هذا كان ينتقده بشدة . هؤلاء العواجيز مزعجون فيما يتعلق برجولتهم .

وبينما هو يتحدث مع الشاب ، لم يكف هيكل عن النظر إلى مقصورة المحافظ . لقد اقتربت اللحظة التى لم يعد فيها موت عبد الحليم سرا لأحد ويهمه أن يعرف كيف سيتصرف المحافظ عندما يعرف الخبر ، كانت سعاد قد تخلت عن مشروعها الرايع مع المحافظ . جلست هادئة على مقربة من أبيها . وقد اكتست بتكشيرة لاحظها الرجلان اللذان

انهمكا فى نقاش فظ . بدا وجه المحافظ الحزين مكتسبا بتوعك عميق . بسبب كرامته المجروحة . راح محدثه يتتبعه . يجب أن يسقيه من روح السخرية . راح يبرم شاربه ويرفع يده وكأنه يتحكم فيمن حوله بهذا الفيضان من الفصاحة المهينة . رأى هيكل سعاد كأنها تنبح . وقد بدا عليها الملل جهارا . وفى مقصورتها المنفصلة عن الجمهور . بدوا وحدهما كإنهما لم يصابا بأى قلق . قال هيكل .

– الرجولة . لم يشك عبد الحليم المسكين قط أنه فقد رجولته . بل أنه افسد طعمه الماسخ مع امرأة عجوز . فعندما يكون المرء عاشقا لامرأة عجوز مشهورة . . ذلك أفضل من أن ينام مع فتاة مغمورة لا يتكلم عنها أحد . ولكن ماذا يرضى رغبته كرجل؟ أليس ذلك بسبب ثرائه؟ لقد خشى أن يتهموه بالبخل فى الحقيقة لم يكن يبحث سوى عن إثارة دهشة من حوله .

قال رياض: لقد فسرت حالته جيدا . ولكن ليس هذا كل شىء . هل تدرى انهم اكتشفوا إعلانا معلقا على المبولة عليه وجه المحافظ مصحوبا بكلام حماسى عن انجازاته . ألا تجد أن هذه مصادفة غريبة ،

– ماذا تعنى؟ هل وجه المحافظ هو المسئول عن الأزمة القلبية؟

– بالطبع . فعبد الحليم كان مخمورا ، وكان رأس المحافظ يتأمله وهو يتبول مما ذكره بشىء أثار فيه صدمة مرعبة .

علق هيكل: انه لأمر مضحك .

– ولكنها جريمة ، يمكن أن نُجزم أن المحافظ قتله . بشكل غير مباشر مهما يكن . فلا يمنع أن الأمر قد حدث على هذه الشاكلة . ما رأيك فى فكرتى؟

ومن جديد . لاعب رياض رموشه كشاب مبتدئ لايعرف سوى هذه الخدعة كى يمارس عمله ، أراد أن يبين لهيكل أنه يحمل الأفكار الانتقادية . وأنه ينفذ الأمر رغما عنه . ولكن خطته الساذجة هوت فوق الأرض . ولم تجد لدى صاحبه أى حماس . قال بشكل سخيف:

– ألن تقول شيئا . تصورت أن هذه الحكاية تعجبك .

قال هيكل حتى لا يخيب أمل الشاب: انها تعجبنى كثيرا .

ابتسم رياض . وأحس أن حركة الرموش هكذا بدت غير مجدية . فأخذ ينتقد المحافظ بشدة . وراح هيكل يباركه ، قال:

– لقد استبد بالمحافظ خزى ملحوظ . انه يعاملنا كأغبياء . فما قرأته فى هذا الاعلان شديد الغرابة . إنه مثير للدهشة . فهذا الرجل راح بعيدا فيما يتعلق بالسلطة . ألا تعتقد ذلك؟

رد هيكل: ياعزيزى رياض . مازلت شابا كى تعرف قيمة هذا الرجل . إنه نموذج استثنائى . وهو يعرف ماذا يفعل ، وأنا ازداد اعجابا فى كل لحظة به . دعنى أخبرك أن سذاجتك تؤلمنى .

عبرت ملامح رياض الرقيقة الانثوية عن إخفاق لا حدود له . كأنهم أعلنوا نبأ وفاته ، بل أكثر من هذا: انهيار الاخلاق التى كان يعتقد أن هيكل يشاركه فيها ، بحث عن شيء بسيط يتناسب مع أوهام شبابه ، ولكن فكرته بدت فجأة مزعجة عندما سمع الزئير البعيد لصوت عربة اسعاف تشق طريقها نحو الكازينو ، راح الصوت يعلو كلما اقتربت العربة ، تخترق الهواء بأنينها المزعج المؤلم . كان هذا الزئير يعلن عن كوارث الناس حولهما ، راح رياض يتأمل هيكل وقد لف رقبته وبدا راضيا ، وكأن صوت نفير العربة يبرهن على صحة رأيه . أدار هيكل رأسه نحو مقصورة المحافظ ، الذى بدا وقد تجمد من المنظر الذى أمامه . كان المحافظ واقفا أمام مقعده . فأدار قامته وأخذ يحرك عينيه حوله ، وكأنه يحاول أن يفهم من أين يجئ الخطر . مما أعطى الانطباع أنه يود أن يقبض على متمرد . فجأة سكت النفير ، وانفجرت سعاد فى الضحك وهى تنظر إلى هيكل . هذا الذى يستهوى نظر الفتاة . فبدت ابتسامته أكثر سخرية من أى وقت مضى .

(9)

تحت هذه السماء ، راح ينظر من أعلى سطح منزله المشمس إلى البحر ، نوى كريم أن يقضى يوما مليئة بالأحداث السخيفة ، وأن يعطى لهذه الأحداث فرصة الحدوث . عليه أن يمشى بخطى متساوية ، وأن يتوقف أحيانا فى ظل الأشجار الممتدة بطول الطريق الترابى . بعين راصدة ، وأن تتجه مشاعره نحو شيء خفى ، وأن يهتم بأقل تفاصيل المنظر الذى حوله . كل هؤلاء الناس الذين سيقابلونه ، ويسدون عليه الطريق ، ويغرقونه بكلمات مغالية عن صعوبة الحياة . ولهذا كان كريم أكثر الناس سعادة . لاشيء يجعله أكثر متعة من التسكع فى الشوارع حسب ظروفه الطارئة والمفاجئة . فكل ما يراه ويسمعه يسبب له سعادة يعجز عن وصفها ويستثير بهجته . حوانيت غارقة فى الظل ، وبعض الأقبية المظلمة . قد يقترب من العتبات على أمل أن يلتقط بعض العبارات المتلاطمة . كل ما يبحث عنه وراء هذا ، هو أن بعض الأمور لا ملابسات لها ، إنه يحب سماع الأفكار المتبادلة بين الادعياء . هناك بشكل خاص جملة يتوقع أن يسمعها كل مرة يدور فيها النقاش بين رجلين . مهما كان مستواهما الاجتماعى – ففى أغلب الأحيان يتعلق بالأوباش المعدمين . هناك دائما من يقول للآخر كمن أهينت كرامته : "هل تعرف من أنا؟" هذه الجملة تثير إعجاب كريم ، لقد تفنن منذ وقت طويل فى اكتشاف مكونات إثارة البشر . يبدو هذا شيئا غير قابل للتفكير . ففى هذه المدينة يتصرف

الحفاة كأشخاص مهمين . حتى الحكومة اتخذت من الكورنيش البائس المطل على البحر طريقا حيويا ، كأنها تؤكد بذلك ان جنون الكبار يأتى من أعلى . اذن ، فأى مغرور اوباشى يمكن الإمساك به ، وهو يسير على نهج حكومته .

ليس هذا هو هدف نزهة كريم الذى وجد نفسه محشورا – فى ساعة مبكرة – فى هذا الشارع الذى ضربته الشمس . يقابله جمهور متحرر . يمشى الهوينا فى الحر والتراب . فبالامس جاءه طلب استدعاء من قسم الشرطة يأمره أن يحضر للاستجواب فى أمر يهم الحكومة . هذا الطلب لم يسبب له قلقا . فقد كان ينتظره ، إنه استكمال لمهمة الشرطى الذى نبهه إلى ذلك . بسبب هذا الطريق الحيوي . لذا سلك طريقه قبل الموعد المحدد . كى يستغل الوقت . ويعد نفسه للاستجواب القائم على إقامته فى مسكنه الجديد . وبينما هو يتسكع تساءل إذا كان الشرطى العجوز المصاب بالربو والذى تمكن من صعود الأدوار الستة فى الأسبوع الماضى . قد التزم بوعده ، وكتب تقريرا مفصلا . أم هل كان جاحدا بعد أن قبل طائرته الورقية ؟ راح كريم يسترجع المشهد ، وتردد العجوز المؤلم الذى اعتقد أنه يغويه . لقد نجحت الفكرة فى افساد شرطى مما جعله يضحك ، ولكن الضحكة كانت قصيرة . فهو لم يحس بالسكينة تماما ، فعليه أن يرد أيضا على أسئلة جريئة . وأن يبكى وينتحب كى ينسى ماضيه كثورى . وهذا يتطلب بعض الاستعداد من ممثل يقوم بدوره جيدا . اتخذ شكل رجل خجول . وأعطى لوجهه تعبير رجل أصيب بكارثة ، واقع تحت عبء مسئولياته . للأسف فليست هناك أى مرآة . عليه أن

يكرر الأداء بلا نية فى تصحيح أخطاء التمثيل ، بالتأكيد ، لكنه يمكن أن يبدو كئيبا . إنه لأمر يبدو صعبا ومنفرا . حاول أن يتخذ شكله العادى ، ابتسم ابتسامة عريضة وهو يمسح تعبير المعاناة من فوق وجهه . بطريقة أو بأخرى . كان واثقا أنه سوف ينفر كل رجال الشرطة الذين يريدون أن يبعدوه عن مسكنه المريح وأن يلقوا به فى كوخ فى حضيض المدينة . تطلع إلى السطح الواسع والى الفضاء أمامه ، إنه من العناصر الأساسية لصناعة الطائرات الورقية .

لقد أصبح الأمر بالنسبة له مسألة سعادة . خاصة أن الطريق أصبح حيويا . إنها قصة جميلة تدفع المرء أن يسير غور الغباء . كان الأمر الأساسى هو أن يجد الشكل المناسب ، وأن يبدو شخصا متكابرا ومراوغا ومنحلا ، وألا يتعمد نطق أى كلمة ذكية . فهذا هو الخطر الأكبر . فالذكاء مبهر كالبصقة فى الوجه .

ولكن كيف يخفى ضياء عينيه اللامعتين . هل يستخدم نظارة سوداء ؟ ويزعم أن رمدا أصابهما ؟ يالها من فكرة رائعة . لماذا لم يفكر فيها من قبل ؟ فالوقت متأخر الآن . وعلى كل ، فهو لا يمتلك نقودا كى يشترى نظارة .

بين وقت وآخر ، كانت عيناه تقع على أحد الاعلانات التى علقها البارحة فى الطريق . تباع مسيرته مع وجه المحافظ ، بدت له فكرة ثرية ، وهو يتابع مسيرته نحو مقر الحكومة إنه نادم لأنه صنع هذا الديكور البشع الذى يقفز إلى عينيه فى كل لحظة . كأنه اعلان من الجحيم . كل

هذه الصور تعكس مظهر التقوى التى تفتقد المشاعر الروحية تماما . فبعضها يحمل نوايا تخريب بشعة ، شاهد عينى المحافظ وقد نزعتا من مكانها ، أما البعض الآخر فقد وضع له لحية . هذا الخداع البليغ لم يفسده المحافظ فى شىء ، فهو يحس دوما بعرفان الجميل . فمنذ ظهور هذه الاعلانات أصبح أكثر شهرة من نجوم السينما ، وهلل الاطفال لصورته . وتعاملوا معه كفيلم مغامرات . هذا الأسلوب الغريب لا يصدر إلا عن أطفال أشقياء . لم يهم السلطات سوى أن الاعلانات أثارت تجمعات الناس المؤهلة للمزاح والألعاب الشيطانية بأساليب عديدة . وعلى الشرطة أن تتدخل وتوقف بعض الأشخاص الذين يضحكون أكثر من الآخرين ، بتهمة ممارسة الدهشة . وهذا وحده يكفى . كان هناك دوما شخصان أو ثلاثة أشخاص من مدخنى الحشيش فى الغرزة ، وقد فتحت عليهما صورة وجه المحافظ المثيرة للسخرية والرغبة فى القهقهة . لم يستطع هؤلاء أن يمنعوا أنفسهم من الانفجار فى القهقهة ، حتى ولو وقعوا فى قبضة الشرطة الغاضبة . راح العديد من الناس يكيل المديح لمن لا يستحقه . لكنهم ظلوا محتفظين بشرفهم ، مثل هذه الأمور اللئيمة الصاخبة التى تتولد فى اللحظات غير المناسبة ، راحت تصنع الزحام فى الطريق العام . ووضعت السلطات أمام اختبار قاس ، ضجر جنود المحافظ الذين لم يفهموا شيئا عن هذه البادرة غير الرسمية ، التى لا يقوم بها سوى الثوار .

فجأة توقف كريم ، وقد رأى على مسافة أمتار حلاقا يفترش أدواته فى ظل شجرة فوق الرصيف . دفعه هذا المنظر أن يقص شعره .

وتراءت له فجأة ضرورة أن يقدم نفسه لممثل الحكومة فى مظهر الشخص الذى يعتنى بنفسه ويكن مشاعر الاحترام تجاه السلطات . فالشعر شىء أساسى ، والشعر الطويل قد يعطى روحا ومسلكا ثوريا . فأقرانه أكثر شعثا فى أغلب الاوقات . ولا يأخذون الأمر على محمل جاد . فى أى خطأ جسيم سيرتكبه . وكيف يعرف أنهم لن يرغموه على دفع غرامة لو رأوه بهذه "الخلقة" التى تليق بشخص مثقف ضال . قصة شعر رائعة ، تقريبا على الزيرو وكأنه سجين ، سوف تترك أثرها وستعطيهم برهانا أكيدا عن احترامه للقانون . رجل واحد فقط قادر ان ينفذ هذه الأعجوبة . انه هذا الحلاق الجاهل مع هذه الجزة المدمرة .

تقدم كريم مبتهجا ، مشدوها بقراره ، كان الحلاق يقص شعر رجل قصير نحيف ، ذى وجه كئيب ، يرتدى رداءا داكنا مرتقا ، يتمتع بفقر نبيل ، يجلس فوق مقعد خشبى وقد أسند ظهره إلى جذع الشجرة . اغلق عينيه ، كأنه أحد الشهداء يضع ملفا فوق ركبتيه ، افترش فوقه طربوشه البالى . دليلا على أنه موظف ، وكأنه يثير خوف أوباش المكان .

أما الحلاق ، فقد أحنى رقبته أمام زبونه ، وهو يتحرك كأنه يقوم بتحنيط جثة . راح يمرر موسى ذا نصل شديد الخشونة فوق وجنتيه يصدر صوتا أشبه بالمنشار الآلى . لم يزعجهما وصول كريم بالمرة ، فلم يرد أحد منهما على تحيته ، اندهش لهذا الاستقبال ، ولكنه واثق فى نتائج الأحداث . جلس الشاب فوق المقعد الآخر الخاوى المحجوز للزبائن وانتظر . وفى الحال أحس بأن هناك أثرا لتغيير مفاجىء فى الجو . انتابته

غبطة غريبة ، راح يهتز شيئا فشيئا وقد أحس بأنه فى حاجة إلى النوم : طراوة الظل ، ورائحة صابون الذقن ، الممزوج بروائح مختلطة بعطر البنفسج . أحس بأنه فى جو ريفى . فى هذا الحر اللاذع . بدا محل الحلاق المقام فى وسط الهواء ، أشبه بحديقة الملذات . مكان من الأحلام الممتعة . أراد كريم أن يبقى هناك أطول وقت ممكن دون أن يتحرك ، وأن ينظر فيما يشبه الوعى إلى العابرين الذين يمرون حوله ، وأن يتصرف مثل الملاعين المنذروين للنار الأبدية كان يتلذذ بهذا الايتجمام . عندما سُحب بشكل بشع من خدره بعربة يجرها حمار توقفت لتوها عن القرقعة بجوار الرصيف . رأى كريم الحوذى يترل أرضا ، ويخلص حماره ويمسكه من رقبته ، ثم يصحبه إلى ظل الشجرة كى يكون قريبا من ناظريه .

قال الحوذى بصوت صادر من أعماقه : يا اسطى عبده . هل انتهيت ؟ إنه فى حاجة لأن يجز شعره . . ابن العاهرة هذا .

رد الحلاق وهو يلقى نظرة على الزبون الجديد ذى الأقدام الأربعة : حالا . دقيقة واحدة وسأهتم به .

الحمار ، إنها مملكة ، لعله يفهم أنهم يتكلمون عنه ، لذا راح ينهق بطريقة مزعجة فى أذنى كريم . وخلال لحظة ، لم يستطع الشاب أن يتماسك ، فراح يوجه كلامه إلى الحوذى :

– هل يُنهق هكذا دائما ، أم أن هذا عيد ميلاده ؟

قال الحوذى : الجو حار . إنه حما عجوز ، لكنه طيب .

بدا الحوذى شديد الغلظة ، ولم يتحمل السخرية . فقد جرحه كريم . انتظر ردا لائقا . وأمام الفقر الفكرى لمخاطبه . بدا عصبيا وقال:

– لا شك فى ذلك . ولكن حاول أن تسكته ، إنه غير محتمل .

راح الحوذى يربت على ظهر الحمار ، ويخاطبه بكلمات عذبة ، كأنه يغازل عشيقته ، ثم ألقمه ببعض حزم البرسيم . فهدأ الحمار قليلا قليلا .

وراح يلوك فى الفضاء كل هذه الوعود الماكرة . وفى ذلك الوقت كان الحلاق قد انتهى من زبونه الذى وضع طربوشه على رأسه وطوى ملفه أسفل ذراعه . وعندما أحس بأن مشاحنة سوف تتولد قرر ألا ينحشر فى شجار أحد أطرافه حمار .

أمسك الأسطى عبده مجزة واقترب من الحمار وبنظرة عصبية لفنان جاءه الإلهام أخيرا . ولكن قبل أن يبدأ مهمته أوقفه كريم بحركة ، وقام من فوق مقعده :

– ماذا يعنى هذا يارجل ؟ أنا هنا قبله . وأنا مستعجل .

قال الحلاق : معذرة يا أفندم . ولكن هذه عادة قديمة . ولا يمكن أن أجعله ينتظر .

– سينتظر وأنا أكرر عليك أننى متعجل .

قال الحوذى : هذا الحمار متعجل أكثر منك .

علق كريم : لماذا ؟ هل سيذهب إلى حفل رفاق ؟

رد الحوذى بلهجة مكابرة : ليس لدينا وقت للذهاب لحفلات رفاف ، نحن نشتغل .

راح الحمار ينهق ، وكأنه يحس بالفخر أنه السبب فى كل هذا . مد الحوذى المجز بطول ظهره وهو يغنى له بصوت رقيق مسموع . انتاب كريم سُخط غبدأ يثور لكل هذا الاهتمام الذى يلاقيه الحمار . ترى ناذا يكون هذا الحيوان ؟ حمار حكومى ، ربما وزير ، جاء خلسة وراح يتصرف كالموضفين ؟ لم يدهشه هذا فى شىء . فقد شاهد المعاملة الاستثنائية التى يلقاها من الحلاق ، بدا الموقف غير متكافئ تماما بالنسبة لكريم . فغرق فى متاهة . عليه ان يتصرف بحذق كى يخرج دون أية خسائر . فهو لا يمكنه أن يغادر المكان ، أحس أن أمامه ساحة من الجدل المثمر ، لم يكن عليه سوى أن يثريه . فمثل هذه الحالة من الشرور لا تمثل له الشىء الكثير .

رفع كمه ، وبدأ ينظر فى ساعة يده ، واستكمل موجها كلامه إلى الحلاق :

– ألم تأخذ فى حسبانك يا رجل انى على موعد مع المحافظ . فتجعل هذا الحمار يسبقنى ؟

سأل الحوذى وقد بدت عليه الدهشة لعلمه بوجود شخص ما : أى محافظ ؟

انفجر كريم : أى محافظ ؟ محافظ هذه المدينة !

ردد الحوذى : هل فى هذه المدينة محافظ . لا تقل هذا أيها الشاب . حتى استطيع أن أصدقك .

صاح كريم : هذا سر تخلفنا . فأمثالك من الناس يصنعون منا شعبا متخلفا .

بلغ الجنون حده ، أحس كريم أنه غير قادر على إيقاف الآلة التى فتحت النار . لقد دفعه شيطان رجيم أن يورطه أكثر محاولا أن يدفعه إلى ذلك الجدل العبثى . تردد أن يترك هذا الجو اللطيف الظليل كى يرمى بنفسه فى الشارع الحار المرعب ، ولمضايقات استجواب الشرطة . قال غير واثق فيما سيفعل :

– سأذهب .

ولكنه بقى ينتظر المجهول ، كأن هذا الموقف سوف يسلط ضوءا ساطعا سيكشف له كل وجه البشرية الغامض . قال الحلاق ، وهو يمسك مجزه ويرفعه عن الحمار الكثيف الشعر :

– انتظر يا افندم . لقد انتهيت . حان دورك الآن .

رد كريم بفخر : لا . لن أكون بعد الحمار . . أنت لا تعرف إلى من تتكلم .

فكر الحلاق لحظة ، وهو يرفع المجز . وقد ارتسمت ملامح القلق على وجهه وسأل محيرا :

– من أنت يا افندم ؟

علق كريم بطلاقة : لن أضيع وقتى لاخبرك من أنا . انشغل بهذا الحمار فهو الزبون الذى يليق بك .

قال الحوذى وقد اكتسى بتوحش : أنت تشتم حمارى . من أنت كى تجرؤ على إهانة هذا العامل ؟

التقط كلمة "عامل" بدهشة من ذلك الأوباش الرقيق ، فالحمار له حق الاحترام ، ليس كحيوان . ولكن بصفته "عامل" . . ولبضع ثوان ، ظل كريم مفتونا بهذا الرد الذى خفف عنه طول الانتظار . ثم أدار ظهره إلى الرجلين وألقى بنفسه فى الحر وأحس بالسكينة تهب عليه .

لا يمكنه الآن سوى أن ينسحب . فهذه المسرحية عند الحلاق قد أخرته ، وهو مضطر أن يعجل خطاه كى يصل إلى مبنى المحافظ فى الساعة المحددة لاستجوابه . أحس بالانتعاش وامتلأ بالأمل . وتهيأ تماما لمواجهة كل الشرطة الماكرة القاسية التى تسبب له الضيق عند استجوابه . راح يقطع الدرب وهو يشق لنفسه طريقا صعبا بين الجماهير التى سدت عليه الطريق .

توقف لاهثا كى يفحص المبنى الكبير الأبيض الذى يعلوه العلم ، علم الحكومة . لم يأت هنا منذ وقت طويل ، تردد وهو يجتاز البوابة

متنكرا أى سبب حقير أدخله هنا فى الماضى ، عندما كان ثوريا متكلبرا كم هو خجول من هذه الذكرى التى تكشف عن غبائه آنذاك . كيف استطاع أن يفهم أنه الأكثر قوة . وأن ادعاءه ليس سوى مبعث للدهشة . لحسن الحظ ، لقد انصرم هذا الزمن البعيد . زمن خفض الرأس ، وارتسمت على وجهه دلائل الخجل والخوف . اندفع عبر الباب الأثرى المفتوح على مصراعيه كأنه مصيدة مستعدة أن تنغلق وتلتهم فريستها . هزته رعشة وانسال عليه عرق بارد . ليس من الخوف ، ولكن من مروره المفاجئ فى ظلال المبنى الضخم . تقلص أكثر . ارتدى زى مواطن لا افكار له أو طموحات مخلوق خاضع لقدره ويخشى كل السلطات . فى هذا الشخص الجديد لم يميز قط أشخاصا آخرين يملئون القاعة الواسعة بالدور الأرضى . العين متحجرة وباهتة ، تنتقل من مكتب لآخر ، متوجهة نحو عقاب مؤلم . تصرف كريم كشخص يعرف المكان جيدا ، دق السلم الحجرى الكبير . صعد إلى الطابق الثانى . رأى "عسكرى" جالسا خلف مائدة ، يقرأ جريدته دون ان تتحرك عضلة واحدة فى وجهه . لعله بلاشك . لا يعرف القراءة . بل فقط يتظاهر بذلك . مد له كريم خطاب الاستدعاء أمسكه الآخر . وألقى عليه نظرة سريعة ، وقال هامسا :

– اتبعنى .

تبعه كريم فى صمت . بشخصه المسكين الصعلوك المختال . فتح الحارس الباب ، وترك كريم يمر . ثم أغلقه كأنه يوقظ شخصا نائما .

زُكم كريم برائحةمألوفة من صالة الاستجواب : رائحة غامضة تعطى الاحساس أن العبث البشرى يفوح من أناس تثير الغثيان . أناس من كافة الأنواع وكافة الأنحاء ينتظرون فوق مقاعد بجوار الحوائط . مجمدين فى استسلام تام ، يبدون كأنهم هنا منذ بدء الخليقة ، بدا مظهرهم مغبرا ، وملابسهم بالية . أشبه بتماثيل قديمة تم إخراجها من بعض الحفريات . راح كريم يتأملهم لحظة وقد علاهم الغبار ، كأن شخصا يزورهم لأول مرة ، رفات سراديب الأموات . سحب منديله من جيبه ومسح العرق من فوق جبينه كى يثبت لنفسه انه لا يزال على قيد الحياة . فهو لتوه الحقيقة المؤلمة . فكل هؤلاء الناس يمثلون نفس ملهاته . التزموا الصمت واكتسوا بهذه السحنات الشاحبة على أمل وهمى أن يتصوروا أنهم موتى . ليس أمامهم سوى أن يمتثلوا لمخالب الطاغية . أعجب كريم من منهم فى التظاهر ، وكان بالغ السعادة أن ينظر بيعن الحسد لمثل هذه النماذج البشرية . جلس فى مكان خاو بأحد المقاعد وقد اكتسى بمظهر المبتئس . ظل ساكنا للحظة ، وحاول ان يتلاءم مع هؤلاء الضحايا الصامتين ، ثم وبكثير من الحذر ، راح يخاطر بإلقاء نظرة إلى أعماق المكان . جلس الضابط المنوب خلف مكتبه يستجوب رجلا ذا عينين معمصتين ، يبدو أشبه بهيكل عظمى ، كأنه جاسوس فى بلد فقير ومعدم . وعلى مسافة منه يقف شرطيان ذوو شوارب كثيفة يرتفعان لأعلى . كان كريم يعرف الضابط . إنه حاتم . نفس الشخص الذى سبق أن استجوبه . فاجأه هذا الاكتشاف وصدمه فى نفس الوقت . فقد اعتقد ان النظام الجديد قد قام

بتغيير رجاله . يالها من سذاجة ! كان عليه أن يدرك شيئا بالغ البساطة وهو أن سلطة الشرطة الدائمة هى فى امتثالها لكل الأنظمة .

فى أعماق الغرفة . جاء صوت حاتم غاضبا وناقصا وناقما . بدا الضابط وكأنه يعانى مع زبونه . سمع كريم هذا الأخير يطلق تنهيدة طويلة على سؤاله المكرر ، بدا هزاله الشديد وكأنه يمنعه أن ينطق كلمة واحدة . أبدى حاتم دهشته وهو يهز رأسه من هذا الخارج على القانون وحتى لا ينفجر ضاحكا . كان على كريم أن يتذكر موقفه الحرج . فهو فى وضع لا يحسد عليه . وعليه أن يعيد كل خططه . كيف سيمثل على حاتم الملهاة ؟ إنه يعرفه جيدا . ولم تمشى معه حيلته حيث ستبدو تحولاته المعنوية والمادية ، بعد سنوات ، مشبوهة أكثر . لذا عليه أن ينوع أداءه ، وأن يدخله فى مسألة الكرامة ، هذه الكرامة التى يتعامل معها حاتم بهمجية ويسعده أن يحطمها . قرر كريم أن يقدم له شيئا من الوقار الشكلى كهدية .

ودون انتظار . بدا حاتم وقد نال ما يكفيه من زنوبه وراح يصرفه بحركة غاضبة لأحد جنود الحراسة . وبعد لحظة ، بدأ يتمطع ، تنفس الصعداء . كأنه يتحرر ، ثم راحت نظرته تتفحص كل من الأشخاص الجالسين على المقاعد . كأنه يبحث عن شخص بعينه . لأنه فى كل مرة يهز رأسه دليلا على الاخفاق . فجأة لمع بريق فى عينيه ، وهو يرى كريم وسط هذا الجمع من الحثالة البشرية . ارتعدت أوداجه وارتسمت ابتسامة رقيقة على شفتيه . كأنه قد كسب جولة جديدة .

صاح وهو يشير بأصبعه إلى الشاب : يا كريم افندى .

قام كريم وجاء ليقف أمام الشرطى . قال بلهجة متواضعة وهو يخفض عينيه وكأنه فى حالة تأنيب ضمير : السلام على سعادتك .

بدا الضابط مبغوتا قليلا ، نظر ابنتباه إلى كريم وكأنه قد خُدع فى هويته قال :

– يبدو أننى احلم . يظهر ان الزمن لم يمر عليك . ماذا حدث لك؟

راح كريم يحتفظ بعينيه منخفضتين . ولم يقل شيئا . فهو يعرف أن الانطباع الأول تتوقف عليه بقية الاستجواب . راح يبحث عن كلمات بينما استكمل حاتم :

– اجلس . انت لا تعرف كم أنا سعيد لرؤيتك .

جلس كريم فوق المقعد الذى تركه سابقه لتوه وأطلق نحو الضابط نظرة امتنان :

– لقد فهمت أننى كنت على خطأ ، سعادتك . ألا يمكن للشرطة أن تنسانى ؟

هتف حاتم : تنساك لكنك تركت ذكرى لاتنسى . لقد كنت مستعدا لتدمير كل شىء . وعدتنى أن تقبض علىّ اذا وصل اصدقاؤك إلى السلطة . أليست هذه كلماتك ، أم أننى كنت مغشوشا ؟

قال كريم : إنها غباءات . كنت أمزح مع سعادتك . كيف يمكنك أن تصدق إننى كنت أتكلم بجدية؟

– ماذا تقول ؟ هل تعاملنى كغبى ؟

– ليحفظ الله سعادتك . استطيع أن أقول إن هذه الأشياء كانت فى لحظة ضلال . ثم لقد نسيت ، سعادتك ، ان هذا كان فى ظل النظام القديم .

– أمر جميل . هل أنت ثورى أم لا ؟ هل يمكن أن تفسر لى فيم يعجبك النظام الجديد أكثر من الأخرين ؟

صرخ كريم بصوت رفيع : من الصعب أن أشرح ذلك . لكن هذا شيء يُحس به . لا يوجد أى شك أنه نظام جيد ، وان الجو تغير . على سبيل المثال ، الآن اذا مشيت فى الشارع فان درجات الحرارة تبدو أقل .

– آه . . . درجات الحرارة أقل . هل هذه هى كل المزايا التى تراها فى النظام الجديد ؟

– للنظام الجديد بلا شك مزايا أخرى ، ولكننى ربما لم أحظ بها ، سعادتك .

انتهى الكلام ، بدا كريم فخورا بوجوده ، بينما بدا الضابط متجهما ، ومن الواضح أن الشاب يلف به . انه بالتأكيد يسخر منه ،

لقد كان يعرف تماما عقلية كريم ، ولاشىء يجبره أن يسلك طريقا مخالفا . اذن هناك سر يناضل أن يعرفه . ويجب أن يعرفه .

انتظر حاتم مجابهة مع خصم جموح . موجود أمامه . ورغم كونه رجل شرطة ، فان لديه فرصة ، فى بعض الأحيان ، أن يعجب بالشجاعة القوية لروح الثورى التى تحرك الشاب . وهو سعيد أنه يحقق معه من جديد . فهو يتعلم أشياء كثيرة من هؤلاء الثوريين . أشياء جيدة للغاية ، ومن مركزه الأعلى . فحاتم يدرس كافة التفاصيل المتعلقة بموضوع الاستجواب . لذا يعاملونه كضابط مثقف . قادر ان يحتفظ فى رأسه بمعلومات شاملة عن هؤلاء الشباب المجانين الذين يريدون قلب نظام الحكم . فى الحقيقة فكل معلوماته فى المهنة تتلخص فيما ينتزعه من استجواب بعض السياسيين . وهذا ما يريده من كريم فى موقفه الساخر . ابن الزانية هذا لم يوضح له شيئا عن موضوع الاستجواب سوى أن الجو أقل حرارة الآن منه فى ظل الأنظمة الأخرى إنه يسخر منه بالتأكيد .

راح الغضب يعتمل فيه ، ولكنه كان سعيدا . تأمل الشاب بعين الطبيب الفاحصة القلقة باحثا عن تشخيص للمرض بأقل درجة من العناء . لم يبد من كريم أى رد فعل . ظل محتفظا بموقفه . وهو يكتسى بالتواضع المأساوى والواقع عليه . جحظت عينا حاتم . انه فى قمة خيبة الأمل . خيبة حقيقية وهو يرى نفسه يتقبل توبة الشاب . لكن لا شىء يدفعه أن يصدق . اللهم الا أن هذا أمر بالغ السهولة . الثورى لا يتغير .

على الأقل بهذه الطريقة . إنه مثل الشرطى لا يمكن للنظم السياسية أن تراه من داخله .

أطلق تنهيدة تسليم تعنى أنه لن يتنازل عن موقفه . ثم فتح الملف الذى أمامه وأخذ يتفحص بعين منهكة ومتعبة . ثم راح يقرؤه ، أصبح وجهه أكثر تعبا . وكآبة ، كأنه يبحث عن دليل يمكن أن يؤدى بالمستجوب إلى الاعتراف ، فجأة رفع رأسه وتأمل الشاب من جديد ، ثم تفجرت عيناه بعاطفة ما . بدا وكأنه يقتفى شيئا أكثر مهابة . . أما كريم فكان يخفى رجفة خفيفة من الخوف جعلته فى رهان مع نفسه على إحباط محاولات خصمه .

– حسبما قال المخبر الذى زارك . يبدو أنك تعمل ، وتصنع طائرات ورقية أليس كذلك ؟

– الحياة صعبة ، سعادتك . وأنا أفعل ما بوسعى .

– حسنا . كلمنى قليلا عن الطائرات الورقية . كيف هى ؟

أوصلت نظرة حاتم المليئة بالشك – مضيفه بهذا السؤال الغبى إلى قمة الميلودراما الشاذجة . فهل يشك الضابط أنه يستخدم الطائرات الورقية لتصوير الأهداف العسكرية ؟ ولم لا ؟ فكل شىء جائز فى خيالات الشرطة .

– إنها طائرات ورقية صغيرة . سعادتك ولا ضرر منها . ماذا تعتقد ؟

– لاعليك عن أعتقد . ولكن فيم تستخدم ؟

– تستخدم فى تسلية الأطفال . لا أكثر .

لم يبد حاتم مقتنعا . أما كريم فكان يعانى إنه لا يستطيع أن يفجر القيد الهائل الذى يخنقه . استمر الضابط فى مواجهته بتحد ، فهو لا يوافق ببساطة على حكايته . وهو على يقين أن الطائرات الورقية تُستخدم فى بعض الأمور السرية . لكنه تردد أن يرتمى فوق هذه الرمال المتحركة . المليئة بالمكائد ، وأن يخاطر بأن يفقد مهابته . أخذ يحرك يده وكأنه يحاول اصطياد ذبابة ، وكانت هذه طريقته فى ترتيب الأمور .

قال: لندع هذا الآن . أخبرنى عن رأيك فى الوضع العام بوضوح .

– أعتقد أن كل شئ على ما يرام . سعادتك . . أنا لا أرى شيئا يمشى بشكل غير طبيعى . أحس أن الشعب مبتهج . وأنه صورة نموذجية من السعادة .

– حسنا ، دعنى أخبرك أنك متفائل جدا ، هناك أيضا أوغاد ، وأقذار يقومون بإثارة الأمور ، يبدو أنهم ليسوا سعداء من النظام الجديد ولا نت غيره . ماذا يجب ان نفعل كى نعجبهم . أنا أسألك ؟

– لا أعرف ، سعادتك ، فأنا لا أشتغل بالسياسة ، وسوف أتزوج قريبا .

بدت هذه الكلمات الأخيرة على حاتم وكأنها كارثة . سأل بوجه يكسوه الاشتئزاز :

– هل ستتزوج ؟

رد كريم بصوت رجل سوف ينتحر : أجل سعادتك .

أغلق حاتم ملفه بكل صلافة . وبدت الحركة وكأنها أبعدت الشاب من عالمه قال وهو زائغ البصر :

– حسنا . الآن ، يمكن أن تبقى حيث أنت . ولكن حذار . فعند أقل خروج على الشرعية سوف استدعيك من بيتك .

استعد كريم لأن يشكره عندما انفتح الباب فى هذه اللحظة ، وظهر المحافظ شخصيا . قام حاتم ساحيا معه كريم ، وأيضا مجموعة الأشخاص الجالسين فوق المقاعد . ولثوان ظل المحافظ واقفا عند عتبة مكتبه ، يفحص الصالة بعينيه الجاحظتين ، ثم راح يمشى ، وهو يخيب ساقيه المتموجتين وكأنه يمتطى حصانا . ثم وقف قبالة كريم ، الذى أخذته المفاجأة ، وأسرع نحوه ، وأمسك يده وقبلها وهمس ببعض الكلمات غير المسموعة . ثم عاد إلى مكانه وهو يلهث كرجل فوجئ بسعادة غامرة لا يستحقها . لم يهتز المحافظ قط . ولم يتراجع فى خطاه . فقد اعتاد مثل هذه الأمور . واستمر فى الخبب ، فوق حصانه الخفى ، ثم خرج أخيرا من القاعة .

ترك المشهد الذى لم يتوقعه كريم جاثما منهارا تماما . فقد حاول ان يمنعه معتقدا أنه يهجم عليه . ولكن ما رآه كان أشد من هذا . فقد انقلبت الدنيا . وهذا الكريم الذى يعتقد أنه يعرفه قد أصبح فجأة غير محسود الجانب . تأمله بعين مندهشة وكأنه ينظر إلى حيوان لزج ، راح كريم يرمقه بعينين بالغتى النقاء . لقد خاطر أن يستخدم كافة أساليبه من أجل أن يبهر حاتم . وأن يقدم البرهان الأكيد لتوبته انه لا يشك أن مهمته قد نجحت .

أشار له حاتم بالجلوس . قال:

– يا الهى ، أنت تدهشنى أكثر فأكثر .

– لماذا ؟ سعادتك .

– من الصعب علىّ أن اصدق أنك فعلت هذا . أن تقبل يد المحافظ .

قال كريم : ليس هذا مدهشا ، فالمحافظ أبونا فى كل شىء على الأقل هكذا أراه.

فكر حاتم للحظة . فاهتمامه بالشاب بدأ يزيد . وفى هذا السقوط المثير الباد أمامه بلا مقياس ، لم تنتابه فكرة براقة بصفته شرطيا ذكيا . ربما كل شىء لم يتضح بعد .

– اذن ، ما دام الأمر هكذا ، ربما نستطيع ان نتعاون ، لعلك لا تريد ، أليس هو "أبوك" ، كما تقول . هل علمت بموضوع الهجوم البشع ؟

– لا طبعا . ماذا يمكننى أن أفعل ؟

– أريد أن أعرف رأيك فى بعض الاعلانات التى ظهرت أخيرا فوق جدران المدينة .

سأل كريم ببراءة : أى اعلانات ؟

قال حاتم : سوف أشرح لك . إنها اعلانات تصور وجه المحافظ إلى جوار كلام مكتوب ملء بالتقريظ . تقريظ كريم . هل رأيتها ؟

– هل هى الاعلانات التى تتكلم عنها ، سعادتك ، بشرفى ، انها اعلانات جميلة للغاية . فى كل مرة أرى واحدا منها . أقف لأتأملها ، لدرجة أننى حفظت النص عن ظهر قلب . هل تريد ان أسمعه لك ؟

– وفر عليك تعبك . واخبرنى هل يمكنك أن تدلنى إلى مصدر هذه الاعلانات . من طبعها ومن علقها على جدران المدينة ؟

– طبعا سعادتك ، أعتقد أنها شئون المحافظ . فهذه الاعلانات لا تقول سوى الحقيقة عن محافظنا العبقرى .

– انت مخدوع . فشئون المحافظ لم تطبع هذه الاعلانات ، ألا تعتقد ان زملاءك القدامى قد فعلوا ذلك ؟

هتف كريم : ياله من يوم أسود ! أنا مندهش . لماذا يتفنن زملائى القدامى بمدح المحافظ ؟

– لعل جنونا أصابهم . أحاول أن أفهم .

حاول حاتم أن يكشف مدى الارتباك الذى سببه له ظهور هذه الاعلانات بحثا عن أقل بادرة يمكن أن تمده بأمل يتوصل به إلى منظمى هذه الحملة المسمومة التى تأهبت لها كل شرطة المحافظ ، وموهبته كضابط ماهر لم ترق إلى أى درجة من الشك ، فهذه أول قضية من نوعها يراها منذ عشرين عاما انشغل فيها بالقضايا السياسية . عمل مهيب ، وفى نفس الوقت بالغ الخطورة يخرج تماما عن المألوف . لم تتوصل تحريات الشرطة إلى نتيجة فى أى مكان . تساءل حاتم عم اذا كان قد دخل عصرا ثوريا جديدا ، يلزمه أن يعاود النظر فى طرق التحرى لقد ولد أسلوب جديد . وظل هناك كغبى ، يجهل مصدره وأسبابه مما يصيبه بالحسرة .

– اذن ، فأنت لا تعرف شيئا .

لم يكن هذا استجوابا حقيقيا . ولكن هناك محاولة أخيرة لامساك معصم الحقيقة . بدا كأنه يسمع اجابة كريم بلا أمل كبير . رد كريم بصوت رخو وهو يدقق فى الضابط بنظرة فارغة المعانى :

– ابدا سعادتك .

غزا "حاتم" احساس ثقيل بالفشل . واكتسى وجهه بالاخفاق . لقد انتهى الاستجواب إلى فراغ . لم يأخذ شيئا من هذا الثورى التائب . الذى سيتزوج عم قريب ، ويصنع طائرات ورقية لتسلية جموع الخاطئين ، هل يمكن أن يسقط فى حضيض أشد عمقا ؟ لقد باغته وسبب له نوعا من الندم العبثى . ترى هل هو من طراز الثوريين الضائعين ؟ لا يزال لديه الكثير منهم . فكل المنتقمين يستعدون لزرع الفوضى فى طريقه . طالما أن شيئا ما مات لتوه ، مجرد شعلة بسيطة من حريق ضخم . يكاد أن يحرق العالم .

اتكأ على مكتبه ، وغطى جبينه برأسه وقال دون أن ينظر إلى كريم : يمكنك أن تذهب الآن .

قام كريم وحيا الضابط وهو ينحنى أرضا ، ثم استدار وولى . وفى الممر أطلق غمزاته الخفيفة من رأسه يمينا ويسارا لهؤلاء البائسين الذين عليهم الدور من بعده . ولكن هؤلاء لم يعيروا تحيته أى انتباه . خرج إلى القاعة وأغلق الباب خلفه بهدوء . وكأنه يظهر ما فعله للحاجب .

وبعد قليل توقف فى الشارع الذى بدا خاليا تماما ، تحت ظل شجرة ، واستدار كى يفحص الطريق ، وعلى مسافة تفصله كثيرا عن مبنى المحافظ ، حيث اختفى المبنى الأبيض الكبير بعيدا وسط ضباب الحر وبدا أشبه بسراب . أحس كريم أنه خرج من حلم .

(10)

راح كريم يتابع الأرداف الذابلة أسفل الملابس الخفيفة للنساء وهو مستند على سور الكورنيش الحجرى . وقد خُلب تماما باختلاف أوزانهن ، انهن هناك من كافة الأشكال والأحجام ، وفى الضوء الرمادى ، علامة غروب الشمس ، تبدو هذه الارداف المهتزة وكأنها تمتلك حياة ذات ايقاع واحد وتعقد مع كريم اتصالات رقيقة لذيذة ، فصاحبات هذه الأرداف فى أغلبهن دميمات ولا يثرن الرغبة لدى أى قاتل ساد ، لم ينتبه كريم كثيرا إليهن . لم ينظر إلى وجه امرأة إلا نادرا . فقد كن بصحبة رجال بدناء متجهمين يلبسون ملابس الصيف : من الاقمصة القصيرة الاكمام حتى البيجامات القطنية ، يقزقزون لب البطيخ ويرعبون زوجاتهم وبناتهم ويلقون على كريم نظرة فلاح حذر يحرس أبقاره ضد لص مرتقب . راح كريم يرد بسخرية على نواياهم الخبيثة . يحدث هذا كل مساء . النزهة المعهودة للأسر من أجل الترويح عن النفس ، وشم هواء البحر عقب حرارة النهار الخانقة . كان هذا المهرجان من الأرداف يمثل الايقاع اليومى لكريم ، الذى نزل من السطح من أجل السهر ، يتحين فرصة تواتيه أحيانا بأن يجد امرأة وحيدة ، مستعدة للمغامرة ، فيروح يمارس هوايته البسيطة والبدائية . فكريم يعرف كيف يتصرف مع النساء مثلما تصرف مع ضابط الشرطة ، إنه لا يخاطبهن بكلمات ذكية خشية النفور . فالغباء علامة أكيدة أن الحياة تدور .

لكنه لم ير أحدا يأتى فى هذا المساء . فالصيد نادر ، إنه هنا منذ ساعة ، ولم يصطد أى فريسة . فكل النساء يعبرن فى صحبة . أو إنهن خادمات دميمات يسحبن فى أثرهن أطفالا أصغر سنا . بدأ كريم يحس بالعصبية . فها هما عاشقان متشابكى الأصابع حتى لا يفقد أى منهما الآخر يمران من أمامه ، تبدو عليهما العجرفة والكبرياء . وبشكل إلى راح كريم يتتبع ردفى الفتاة ، فجأة هفت ذكرى فى مخيلته ، لم تكن سوى ذكرى مضاجعة ، لان هذه تذكرة بوجهها . انها الغانية اللطيفة الصغيرة التى آواها ذات ليلة ولم تعد إليه ثانية ، لقد أخبرها أن عليها أن تعتبر منزله بيتا لها . . وتصرف بكرم معها ، حقا إنه فى هذه اللحظة لم يتمسك كثيرا بها . كأن ذلك بمثابة دعوة عابرة من أحد أن يلينها ويستميلها أكثر فى مسألة المال . ربما أنها فهمت نيته . لقد غمرته موجة من الشفقة ، شىء غريب ، فوجه الغانية الصغيرة ماثل فى مخيلته ، أصبح بالنسبة له وجها مألوفا منذ أمد طويل مألوفا ، مثل وجه أمه . ندم فجأة لتصرفه الشديد الحقارة مع هذه المسكينة . ترى أين يمكن أن توجد الآن ؟ ود أن يبحث عنها . خاصة أن شرطة المحافظ تطاردها وتمنعها من عملها ، انها ايضا ضحية لهذا المحافظ الملعون .

بالنسبة لهذا الأخير ، فإنه قد مر الآن حوالى أسبوعين على استلامه رسالة هيكل ، الذى يطلب فتح باب الاكتتاب الشعبى لإقامة تمثال للمحافظ لقد نشرت كل الصحف الرسالة فأثارت الدهشة بين الأشخاص الأكثر ارتباطا بالمحافظ وسلطته الديكتاتورية ، وانتشرت الاقاويل بأن محافظ العاصمة تضايق من هذه الشعبية ، وبدأ يتصرف

كرجل قادر على تنظيم دعاية جميلة لأهدافه الخاصة . ففى هذه الأثناء راح المواطنون الذين لا يعرفون من أين تأتى الرياح ، يتعجلون كشف الحقيقة . فالنقود تهب من كل مكان ، وقيل أن هناك قفة سماوية لا تنضب ابدا ، فقائمة المتبرعين تنشر كل صباح فى الصحف . وكريم نفسه يود أن يذكر اسمه فيها وأن يساهم بقرش لحساب التمثال . ولكن لدرجة أن بعض القراء المجانين والأقل وعيا ، كتبوا للصحف بمقترحات عن تمثال صديقهم وألحوا إلى مكان مفضل يوضع فيه التمثال مستقبلا . وبلغ الهذيان قمته . واقتربت اللحظة التى اقترح فيها هيكل أن ينفذ حيلة جديدة اذا لم تنجح هذه الأخيرة عن ابعاد المحافظ للأبد ، كان على كريم أن يذهب إليه هذا المساء ليناقشه فى الأمر ، فقد هزته مسألة المحافظ فجأة ، لكن يجب عدم تجاهل الأمور غير الظاهرة . ففى أعماقه ، إن كريم يتمنى أن يستمر المحافظ بضعة أشهر ، وهى الفترة التى سيتم فيها نحت التمثال . كم غريب أن يرى المحافظ جالسا فوق قاعدة . وهذا شىء محتمل الحدوث .

حل الليل بطيئا ، وأضيئت المصابيح ، فجأة نثرت اساورها اللامعة كاللآلئ بطول الكورنيش أصبح الهواء أكثر قابلية للتنفس وتأخرت نسمة المساء . هبت رائحة الذرة المشوى ممزوجة بصيحات الباعة الجائلين . خلا الكورنيش شيئا فشيئا من العائلات . لم يبق سوى بعض العشاق . انحشروا فى الاماكن المظلمة من أجل لمسات سريعة مثيرة للخجل .

شرد كريم بعيدا ، أحس باليأس من لقاء الفتاة ، لاحظ شبح رجل يستند على السور . على يساره بمسافة ، أدار الرجل رأسه بسرعة حتى لا يرى وجهه . كان يقف خلف دائرة الضوء الساقط من المصباح القريب . صُدم كريم فى هذا الموقف المباغت وهذا التصرف اللئيم ، فالمتره الوحيد الذى يختفى فى الظلام هو طاهر صديقه القديم فى الحزب الثورى . لم يره منذ أمد طويل . إنه واثق أن بصره لم يخدعه . فقد حدده بنظرة واحدة ، فبالنسبة له كان شبح طاهر معروفا تماما فى ظلام الليالى ، خفق قلبه . وأحس بالخيبة ، ارتبك للقاء زميله القديم ، فجأة انتابه شك مرعب ، فهذا اللقاء بعيد عن المفاجأة . يبدو أن طاهر يتجسس عليه منذ وقت طويل . ترى ما السبب ؟ لماذا لا يأتى ليحييه . إنه يعرف طاهر جيدا ، لذا يردد هذه الاسئلة ، فطاهر مؤامر بطبعه . يقدس المناورات والدروب الطويلة الخفية . ولا يمكن أن يقترب من شخص دون أن تلوح حوله بعض الاتهامات المريبة . قرر كريم أن يتركه يلهو . فلديه بعض الوقت ليضيعه قبل أن يذهب إلى هيكل .

راح يمشى ببطء كى يمنح طاهر فرصة للتجسس عليه . كم مزق قلبه أن يجد نفسه مجددا فى صحبة طاهر . لم تكن لديه أى رغبة للنقاش معه فى المسائل الاجتماعية والسياسية . فهما منفصلان تماما الآن . بالاضافة أن طاهر لا يميل إلى التراجع ، ربما سيعامله بقسوة . لم يستطع أن يبعد عن ذهنه بعض الذكريات المشتركة ، لقد ترك فى نفس طاهر بعض الأحداث المدمرة ، فقد تم القبض عليهما معا ، ودخلا السجن معا ، وكان الصديق الأكثر قربا منه روحا .

أحبه وأعجب بنبله اللامبالى . وشجاعته فى الخصومة . كان صبيا ذكيا لامعا ، ينتمى لأسرة من العمال الفقراء تقتطع من خبزها كى تدبر تعليمه . وقد تخرج من المدرسة بعد دراسات مناسبة . ورفض كافة الاغراءات الكريمة كى ينضم إلى الثورة منذ كان ضد السلطة .

فجأة لمعت فكرة ، بدا كأنه نساها تماما من ذاكرته . لقد لاحظ الآن أن طاهر يمسك شيئا فى يده ، تذكر أن زميله اعتاد أن يتنزه دوما مع قنبلة من صناعته . وعندما سأله اذا كان يعتمر عليها هز رأسه بكل ثقة وبصوت أجش : "الاقذار يستحقونها . سأجد مكانا لإلقائها" . كان كريم واثقا أن طاهر لم يفقد قط أساليبه الغريبة . هذه اللفافة التى يحملها يمكن أن تكون قنبلة ويخاف من محاولة اغتيال ضده شخصيا . يمكن لطاهر أن يلق هذه القنبلة فى وجهه وبلا شفقة ما دام أنه يعتبره خائنا . فهو يعرف عقليته ونظرته لشرفه الثورى . فطاهر لا يتردد فى إلقاء قنبلة على أمه اذا لم تتفق مع رأيه . ازداد اضطرابه . راح كريم يبحث عن وسيلة للهروب من هذه الورطة . فأخذ ينظر قلقا إلى الكورنيش الذى خوى من المتنزهين . لم ير ركنا مناسبا للاختباء . لم ير سوى عربة بائع ذرة مشوى واقفة فوق الرصيف تحت ضوء المصباح . هل يختفى خلف العربة ؟ غبى . فسوف تقع العربة عليه . ثم إن التاجر يتأهب لغلق محله وكأنه يتوقع اقتراب كارثة . أسرع كريم الخطى ، وأحس كم هو سخيف ولم يجرؤ أن يستدير ليرى اذا كان طاهر لا يزال يتبعه .

ناداه صوت أجش . وأوقفه :

– يا كريم . لست فى حاجة للهرب منى .

استدار كريم وابتسامته تغطى شفتيه . وتصرف كامرأة تقابل عشيقها القديم الذى خانته وهجرته . فتح ذراعه علامة على حسن الاستقبال :

– سلام ، ياأخى طاهر . يالها من فرصة سعيدة ! كيف حالك ؟

أراد أن يأخذ طاهر بين ذراعيه . ولكن هذا راح يعانقه وهو يعود القهقرى ، رد طاهر :

– على ما يرام . وأنت . هل تقضى وقتا سعيدا ؟

– طبعا . صدقنى . كم أنا سعيد لرؤيتك . فأنا لم أرك منذ وقت طويل .

قال طاهر : معذرة . فقد كنت فى السجن . ومن الصعب علىّ ارتياد الصالونات والمقاهى .

بدا وجه طاهر شاحبا غائر العينين من الحرمان والمغامرات التى لا حصر لها و مما يدل على أنه منبوذ تماما ، ينعكس فى عينيه تحجر شديد يميز المناضلين الذين ينشدون مثالية بعيدة . رمق كريم بكل احتقار ، وأحس فيه بشىء غامض ، شىء من التعاطف لزميل خان القضية . لكنه ظل دائما حاضرا فى الذاكرة . بدا له أن كريم ينظر اليه بعين الاتهام . بنظرة قاض لا يرحم . شخص ماهر ساحر ومدهش له مثل ظروفه . فى

كل الفصول ، كان يرتدى بدلة قديمة رمادية اللون . مرتقبة . وقميص بياقة منشأة ورابطة عنق داكنة . هذا الزى الخشن لموظف صغير يتناقض مع وجهه الثورى . كأنه شخصان متراكبان . كان مبدأ طاهر أن على الثورى الحقيقى أن يرتدى ملابسه بسرعة ، لذا انكر السلوك البوهيمى لبعض الزملاء . كان دائم الشجار مع كريم لان هذا لا يرتدى رابطة عنق .

اربكته ثقة زميله . لم يعرف كريم ماذا يقول ؟ فالسجن لم يغير "طاهر" كثيرا فهو يأخذ كل شيء بجدية . أحس بالذنب لانه هنا . يبدو مزدهرا ، أمام هذا الخارج من أعماق الزنزانة الذى يتهمه ويلعنه . رغما عنه . لم يكف عن النظر إلى اللفافة التى يمسكها طاهر فى يده . انه خجل من جبنه . ولكنه أقوى منه . ارتعد وهو يفكر فى القنبلة . لاحظ طاهر قلقه وهو يطلق تنهيدة متشنجة فبدا كأنه وجد شيئا يبعث على التسلية .

قال بكل جمود : لا تقلق . فهذه اللفافة ليست قنبلة . انها أحذية قديمة أحملها إلى "الجزمجى" ، لقد انفصل الكعب تماما . وانت ترى أننى مضطر للمشى حافيا .

احتج كريم حائرا : كيف لك أن تعتقد ذلك ؟

ومع ذلك أخفض عينيه كى يتأكد من حسن نية طاهر ، رأى زميله حافيا وظل للحظة مذهولا لا يستطيع أن يخلص عينيه من قدمى

طاهر ، إن ياقته بالية كما أنه حافى القدمين ، يالها من فكرة ساخرة !
تردد كريم بين الضحك والعزاء :

– أنا آسف حقا يا أخى طاهر .

– لا تأسف على شىء ، الأمر لا يهم ، لقد عانيت من كافة المآسى . ولست فى حاجة لأن أعيش فى شقة تقع على السطح . أحب القصور كى أدمرها .

هتف كريم : إنها غرفة البواب .

ثم أكمل بصوت خفيض : كيف عرفت أين اسكن ؟ بشرفى أنت تتجسس علىّ ..

ابتسم طاهر بسخرية . وكأن كريثم طفل ساذج وعليه أن يعرفه . قال:

– نحن نعرف كل شئ عنك . أنت تتصور نفسك ذكيا . ولكننا نعرف كل شئ مما تدبرون أنت وزملائك . هل تعرف أن الشرطة ألصقت فينا عبثكم . لا نستطيع أن نتحمل طويلا . ولهذا أردت أن أتحدث اليك .

كان يهمس كمؤامر . رغم أن الكورنيش خال من كل أنفاس البشر . سأل كريم وقد أثاره هذا الهمس:

– أى عبث؟

– هذه الإعلانات التى تتملقون فيها المحافظ ، هل تعتقد أننى لا أعرف مصدرها؟

– فيم تزعجك؟

– انها تجعلنا أغبياء أمام الشرطة . ولا أحب هذا . فلسنا مهرجين .

انتابت طاهر فكرة أن الشرطة تعامله كشخص هزلى ينتهج اساليب بدائية لقب السلطة . فهو يحس بسعادته كثورى . حين تلقى عليه مثل هذه الاتهامات . بكل ماضيه كمناضل ، وكل هذه السنوات فى السجن ، تخيل سقوطه بين ايدى الشرطة فملأه الغضب . وزاد ألمه الداخلى بالشجن . من زميل النضال القديم . هذا الخائن الذى يوجد له مثل هذه الإهانة . قال كريم:

– لاتنفعل ، فالشرطة لاتشك فيك قط . إنهم يعرفونك بما فيه الكفاية بما فيه الكفاية ويدركون أنك من الجادين .

وأضاف كأنه يكلم نفسه: مثلهم .

سأل طاهر بحدة: ماذا تعنى؟

– أعنى أنك بعيد عن الشبهات . فالشرطة تعرف أن الثوارين من طرازك لايرتكبون هذا ، أنت لاتعرف أن الأمور تغيرت ، إنها فقط يثرثون معك أثناء الاستجواب . ثم إن الحكومة تمارس أساليب البوليس

السياسى التى يستخدمها أيضا الطبيب النفسى ، إنهم فقط يثرثرون معك أثناء الاسجواب . ثم إن الحكومة تمارس اساليب البوليس السياسى التى يستخدمها أيضا الطبيب النفسى ، إنهم يعرفون كل شئ عنك . ويعلمون أنك لا يمكن أن تغير اساليب إلى هذا الحد .

قال طاهر بنبرة مريرة فى صوته: على كل ، فقد تغيرت .

ثم راحت يتكئان على السور امام البحر ، صامتين ، وقد ضاعت النظرة فى هوة عميقة ، سوداء تمتد أمامهما ، احس كريم بالارتياح ، لكن طاهر شعر بالاحباط ، وارتقاب الهزيمة أو الموت ، فلم يستطع أن يعرف أى سكينة ، استدار ببطء نحو كريم ، كأنه ينتظر منه حركة أو كلمة ندم أو أسف ، لقد جرب كآبه الارهابى الملتزم بعمليته والمضطر لاستكمال واجبه الدموى ، ورغم المحبة والمودة التى تربطه بضحيته . فإن قلبه يدمى ، أراد أن يتوسل إلى كريم كى يتخل عن جنونه ويعود إلى مثاليته السابقة ، أغرقت الشفافية وجهة النحيل . وكأنه يسكب الدموع .

هذه النظرة الملقاة عليه أوخزت كريم كأنها سهم ، فقلبه ايضا يدمى . أراد أن يحدث ذلك لطاهر ليذكره بالاوقات العصبية ، التى فاحت بعفونة البؤس والمعاناة ، لقد مارس السلام مع هذا العالم البشع الكريه . انه لا يريد ان يغير شيئا . فهو يأخذه على علاته ، بعرجه وعميانه كشخص فى حالة ماسة للحب ، لم يؤمن كثيرا بمأساة الشعب . هل كان ثريا؟ لقد كان الالكثر فقرا بين الفقراء . ومع ذلك فهو سعيد ،

راح يناضل فجأة ضد هذا الشبح الفظ القادم من الماضى كى ينتزع منه بهجته . وقال بلهجة مليئة بالاستفزاز والكبرياء:

– اجل . لقد تغيرت . واهنىء نفسى على ذلك .

استند طاهر عليه . وقد تشبث ببطن سترته ، ثم اتكأ على السور:

– هل تعرف ان زملاءنا مسجونون ويتعزبون ، بينما انت تتسلة لتعليق الصور على جدران المدينة تمدح فيها الجلاد .

– اسمع يا طاهر . بعد كل شئ انا لم اخنك وما افعله لا يمكن قط ان تفهمه . ولاكن اعرف انها الوسيلة الوحيدة لمحاربة المحافظ .

ضحك طاهر ساخرا: يا لها منت طريقة غريبة! اعرف استاذك . لقد سمعت كلاما عنه . فهو من نفس جنس المحافظ ، رجل ثرى يعيش كالامراء . كيف يمكن أن يفكر فى ألم الشعب؟

هتف كريم: لا تمس هذا الرجل . فأنا أحبه . وصدقنى . لن انفصل عنه قط . ولو طلب حياتى ، فلن اتردد فى الموت من اجله .

أحس طاهر أنه قد افرغ دمه . فقد هزه عنف هذه المشاعر كأنها سبة موجهة اليه ، إنه يحب الشعب ، ولأن كريم جزء من هذا الشعب ، فقد احتفظ نحوه بعواطفه وثقته ، وغفر له دناءته ، وقد تمنى دائما ألا يكون انفصالهما سوى حدث عابر ، وأن يعود كريم طواعية إلى الثورة ، ولكن هاهو يراه بعيدا عنه ، بمثاليته التى يحارب ويعانى من أجلها إنه يراه

مرتبكا فى عالم جديد تماما ، حيث هو ، طاهر ، غير معجب به ، استبدت به الغيرة ، وانفتح فى قلبه جرح غائر . بدا له الليل مسمما ، بلا نجوم ولا بحر ولا عقد اللؤلؤ الذى ينساب من المصابيح ذات الأقواس الامعة ، كل هذا لم يستطع ان ينقذه من هذا الموت المقبض ، دام الامر لحظة ، ثم جاءت حقيقة الثورة لتنتزعه من آلامه ، وقد دفعه فضول مريض أن يقترب من الرجل الذى يضعه كريم- بكبريائه الجهنمى- فى مكانه اعلى من الشعب المقهور ، فإذا تمكن أن يكلمه لحظة فى حضور كريم ، فسوف يتمكن من تدمير هذه الهالة التى فى مخيلته ، سوف يكشف له الغرور ، والعدم ، ومكر الغواية التى تتسم به هذه الروح الخادعة ، المنغمسة فى النعيم ، إن له تأثير الساحر فى السيرك ، ربما سيفهم كريم آنذاك كم هو مخدوع ، وان كل هذه المحاولات الغبية لقلب السلطة مصيرها الفشل . وسيعود إلى مبادئه الكريمة لمعركة حقيقية . هذه المغامرة تستبد به بجنون ، ومن ناحية أخرى فهى ضرورية له ، فهو فى حاجة إلى كريم من أجل مهمة قادمة- من أجل خدمة الثورة- لقد جرب طاهر كافة محاولات الاغواء . وعليه أن يستخدم حيلة أكثر مرونة لايقاظ ضميره الثورى لدى بعض العمال العاطلين . قال بهدوء يثير الدهشة:

- أريدك أن تفعل شيئا ما من أجلى .

- ماذا إذن؟

– حسن ، أريد مقابلة هذا الرجل الذى تحبه كثيرا . وبالعيش والملح الذى أكلناه سويا ، اقسم أن توصلنى بهذا الرجل ، أحب أن أتحدث معه .

حاول كريم أن يبتسم ، تجهم وجهه فجأة . فقد بدا هذا الكلب وقد اسعده بشكل ملحوظ ، قال:

– بكل سرور ، أنا واثق أنه يحب أن يتعرف عليك . انت تعرف أنه متعدد الأفكار . ويهتم بكافة الأنشطة الإنسانية .

قال طاهر وقد فوجئ بهذه البساطة ، كأنه وقع فى فخ: أنا سعيد بالتعرف عليه ، هل يمكن أن تصحبنى اليه هذا المساء ؟

– كما تشاء ، الآن أنا فى طريقى لمقابلته . يا عزيزى طاهر . أتمنى أن نعود من جديد معا ، فأنا لم أكف عن التفكير فيك .

فى هذه اللحظة ، لاح شبح شرطى يمشى بخطى وئيدة بطول السور . وقف أمامهما ، تجمد الشابان من المفاجأة ، فهذا ممثل النظام يبدو كغول جائع لمهمة هامة على الكورنيش ، انتظر فى صمت أن يكشف لهما طبيعة التهمة التى يوجهها لهما .

زمجر الشرطى: التجمعات ممنوعة . هيا ، انتشرا . .

قال كريم مفتونا بهذا النزيل الطارئ : لكننا لسنا سوى اثنين .

رد الشرطى : اثنان أو مائة إنه نفس الشىء . هيا انتشرا .

وتابع سيره بطول السور فى صمت . هتف كريم :

– هل سمعت يا ابن العاهرة؟

قال طاهر: إنه شخص مسكين ينفذ الأوامر ، إنها ليست غلطته . علينا أن نعلمه.

– بشرفى أنت مجنون . هل تعتقد أننى سأعيش آلاف السنين . ليس أمامى سوى بضع سنوات ، وتريدنى أن اقضى وقتى فى أن نعلم هذا القاتل النضال المسلح .

هز طاهر رأسه بحزن ، كشخص لا ينتظر فهما من مخاطبه . عليه أن يسرع الآن لرؤية هيكل وأن يواجهه بما يفكر فيه . قال:

– حسن ، هيا ، ولكن يجب أن أرتق الحذاء عند "الجزمجى" .

– فى مثل هذه الساعة لا توجد محلات تصليح أحذية مفتوحة .

– ماذا تعتقد . أنا لا ألبس حذاء من عند "جزمجى" رأسمالى . . إنه زميل يحرس محلا مفتوحا طيلة الليل . وأنا على موعد معه . وهو ليس بعيدا عن هنا . . تعال معى .

هز كريم رأسه بالموافقة ، ثم وضع ذراعه تحت ذراع طاهر وراحا يضربان الطريق . عبرا الشارع وغرقا فى أعماق المدينة ، تاركين الكورنيش خلفهما .

وبعد التحيات . جلس الثلاثة فى صالون هيكل . وقد التزموا الصمت . بينما راح "سرى" الخادم يقدم المشروبات المرطبة وكأنه يمشى أثناء النوم منذ أمد طويل . لم يتوقف "سرى" عن القيام بواجبه . ولكن أيا منهم لم ينتبه إليه . فأهمية هذا اللقاء وغرابته تسمح للمرء بالشرود . انتهى "سرى" بوضع ثلاث زجاجات من مشروب الورد فوق المائدة الصغيرة المنخفضة ، خرج من الغرفة ، ولم يقطع الصمت شىء .

راح هيكل يتأمل طاهر بفضول عالم أثرى يدقق فى قطعة نادرة . فهو ليس حزينا لهذه الزيارة ، طالما أنها تتيح له الفرصة أن يدرس زميل كريم القديم عن قرب . إنه أكثر ثوار المدينة خطرا ، شعر أنه متأهب للانقضاض ، ولكنه بدا بالغ الادب ، ولا يجرؤ على قطع الصمت بكلمات لئيمة . جلس على طرف المقعد عبوسا وخجلا ، لأنه استقبل إثنين من "الغلابة" . كانت النظرات التى ألقاها على كريم بليغة المعنى . وكأنه يعتبره مسئولا عن ذلك الموقف الصعب . انتظر هيكل بفارغ الصبر أن يعرض عليه شكواه . فكر فى أن طاهر قد وصل به الأمر أن يأتى لبيته . وأنه جاد فى رؤيته يعمل ، ترى أى برهان عليه أن يقدمه له . لمواجهة مفاهيم غريبة من شخص يختلف عنه شكلا ومضمونا . راح هيكل يئن من الشفقة . فالنضال أمر غير شرعى ، ترى هل جاء هذا الرجل الكهفى المتعصب للعنف . ليثير استفزازه وماهى الدوافع التى وراءه ؟ هل يتملكه احساس بالضياع ؟ وهل يجب أن يكون الثورى مصابا بالمرارة واللزوجة ، فلا يستطيع مقاومة جاذبية السخرية ؟ بدت له

حالة الرقة التى اكتست زائره ، وكأن طاهر قد جاء له يعلن حبه وليس لعناته .

كان فى أعماق طاهر صخب واحتجاج ، ونوع من النفور ، تماسك فى نفسه وبدا أشبه برجل تحاصره الفئران . فزميله "الجزمجى" قد أعاره صندلا كان يملكه زبون ميت . زادت عصبيته وهو يحرك ابهامه عبر رقائق الجلد . لم يعرف السبيل لبداية الحديث ، إنه ينتظر لطف وجاذبية مضيفه . الذى يرتدى روبا قرمزيا ، وقد بدا وراء المائدة كشخص من علية القوم يستقبل زائرا تافها . الشىء البشع حقا أن طاهر يعى فقره . انها المرة الأولى فى حياته التى يحس بازدراء المأساة . أحس بنفسه ضائعا فى الصالون البرجوازى ذى الأثاث اللامع ، والمقاعد الذهبية المكسوة بالقطيفة الحمراء التى بدت له بشعة ، هو الذى قضى عمره فى الأكواخ والسجون – يرى الآن الثراء أمام عينيه – تمرد طاهر ضد الثراء وليس ضد الرجل الذى شرفه فى منزله ، لان مفاهيم هيكل ، مشوشة . ويجب أن يبلغه أنه لن يقترب قط من رجل من طرازه . فهو ليس جلادا ولا عبدا . ولكنه يناضل السلطة بطريقته ، طريقة مشينة يدفع فيها دمائه ثمنا لتمرده . لم يفهم طاهر التمرد دون جرعة ما من الحقد ، لم يتذرع بالصبر وهو يكشف فى بيت هيكل كافة ما به من أسباب الغضب الذى يكنه لكل المخلوقات الظالمة . بدأ يتصرف بغباء تجاه خصمه ، وكأنه يتمتع بإغاظة بساطة وهدوء طاهر ، أحس باهانة لا تغتفر لنضاله الأبدى الذى لا جدوى له . ربما أن هذا كله ليس سوى خدعة . يمكنه أن يبحث عما يغويه . ويجذبه لعالمه المائع والهش ، لم يترك

نفسه تفعل ، فحضوره هنا بهدف إزالة مخاوفه من هذا الأرستقراطى ذى السحر الخفى . لعله ينقذ كريم من الدمار الذى يهزه . بدأ:

– هيكل أفندى ؟ لقد أتيت . .

قاطعه هيكل بصوت رقيق وهو يرفع يده بحركة هادئة : اعرف لماذا جئت هل يمكن أن تنتظر . دعنى أولا أعبر لك عن سرورى لحضورك .

رد طاهر : لقد أثلجتنى طيبتك . ولكن معذرة . ليس هذا وقت المجاملات . جئت لأتحدث معك . لقد قلت لهذا المرتد – وأشار إلى كريم بإصبعه – عم أراه فى نشاطك ، فهو يتعارض مع شرفنا الثورى . لأن الشرطة تلصقه بنا . أريد أن أعرف بالضبط ماذا أستطيع أن أفعل لك؟

ابتسم هيكل بأدب جم أمام هذا الهجوم من شخص وغد ساذج . لقد راح طاهر يدافع عن شرفه كثورى . كل ما ينشده ألا يصل الأمر إلى الشرطة . أى ثورة وأى هياج فى الصوت يتجاوزان شرفه ، تماسك وهو يبدى احتراما لجلاده . أى موقف ساخر . ومع ذلك لا يستطيع أن يحطم الدائرة التى حبسته فيها السلطة الدموية ، إنه يمارس لعبة الشرف والأخلاق مثلما علموه أن يفعل . ولم يخرج منها قط ، فهو ليس سوى سجين زنزانة . لأن الموضوعات التى أسس عليها نشاطه كانت هى نفسها التى يستخدمها الخصم . خشى هيكل ألا يرى ضيفه قسوة عينيه . فقد يشجع هذا ضيفه . قال وهو يكسب وجهه ملامح المفكر:

– حسنا تكلمت عن اللعبة . لأننا نلعب جميعا ، أليس كذلك يا طاهر افندى؟ أنا آسف بشدة أن لعبتى لم تعجبك . وسببت لك الملل ، لكل انسان الحق أن يعبر عن تمرده باسلوبه . أما اسلوبى فهو لم يتغير ، وهو ألا أقترب من الأبرياء .

أطلق طاهر كلاماته باحتفاء: هذا لعب عيال . أنا لا أشك قط فى ذكائك ، يا هيكل افندى ، لكن سامحنى أن أخبرك أنك تتسلى بينما الشعب واقع تحت قهر . لا يجب النضال بهذا الأسلوب . يجب أن ترد على العنف بالعنف . ولا يهمنى الابرياء .

رد هيكل: العنف لا يتناسب مع هذا العالم الهزلى – لأن هذا هو ما يبحث عنه الطغاة . نحن لا نأخذ الامر بعين الجد ، لانرد على عنفهم بالعنف . ونكشف لهم اننا نعاملهم بجدية . نؤمن بعدالتهم وسلطتهم . ونساهم فى تعزيز مكانتهم . أما نحن فنساهم فى تعزيز خسارتهم .

– أنا لا أؤمن بهذا الاسلوب ، وادعاءاتك لا تستند على قاعدة تاريخية . كل هذا ليس سوى قصصا من الملهاة الماسخة .

– من الأساليب الأكثر سهولة أن تتبع الطغاة فى أرضهم . وتصبح هزليا اكثر منهم . إلى حيث يذهبون أذهب أبعد منهم . سوف أدفعهم أن يجربوا السخرية . كى أحقق فرحتى الكبرى .

صاح طاهر : ولكن هناك الشعب المسكين . لقد نسيت الشعب الفقير . انه لا يضحك .

– علمه كيف يضحك ياطاهر افندى؟ هذا سبب نبيل .

قال طاهر بصوت جاف: لا أعرف ، أنا نفسى لم أتعلم الضحك . ولا أريد أن أتعلمه .

أثار هذا الاعتراف الحنين . بدا الاعتراف أشبه بحب مستحيل ومؤلم . أحس هيكل بانهيار سعادته . حقا إن طاهر يجهل الضحك ، وليس عليه سوى أن ينظر اليه كى يقتنع . لقد تعصب تماما لفكرة الكفاح المسلح مستهلكا وقته فى تدبير المؤامرات ، تتسلط عليه مأساة الشعب . يبدو مخلصا للأسى . انه الموظف الأمثل للثورة . لا يعير اهتماما لأى شىء خارج الدور الذى يؤديه ، ولا يؤمن بالنقد القدرى ، تحوطه أنانية مضاعفة ، يطول انتظارها تتضاعف اعدادها فى مجموعات ، ثم تظهر من جديد وتكشف نفسها . قال هيكل:

_ اذن ، أخشى ألا تسخرون من الطغاة . يجب على كل واحد منكم أن يضحك من الأخر .

– أى حدس هذا ياهيكل افندى . ألم تنتابك قط فكرة امكانية النضال ضد الطغاة؟

– إنه طاغية ميت ، طاغية يثير السخرية . ويثير المتعة .

عقد طاهر يديه ، وهو يتحرك فوق مقعده . كأنه فريسة لغمزات العار . إنه واثق أن هيكل يستعمل لغة مجنونة كثيرة التناقض . . بهدف لأن يخذله . لقد جرؤ أن يكلمه عن البهجة والمتعة . وهو الذى لم يعرف

قط سوى آلام الجوع . لقد كشف أخيرا عن وجهه الحقيقى ، انسلخ خجل طاهر كاشفا عن الفكرة المريرة والغير محتملة ، التى دفعت كريم للامتثال لمكر هذا الرجل المقنع فى صورة داعية للسلم . فكريم يملك قلبا كريما . هل تدنى إلى حد أن يصبح شريكا لرجل مخادع؟ رمق طاهر زميله القديم بنظرة زائغة ، وكأنه يأمل منه المساعدة ، فى الحقيقة لا يمكن لأى خيانة أن تفسد الأمر . لكن كريم لم يبد قط واعيا لموقفه المربك . راح يلتقط أنفاسه ، ارتسمت ابتسامة على شفتيه ، نظر إلى هيكل الذى بدت كل كلمة من كلماته كأنها حكمة خارجة من فم خطيب . بدت التبعية شاملة ، وأحس طاهر بالحزن:

– لم تقل شيئا أيها الخائن .

استدار كريم نحو زميله ، ملدوغا ، خارجا من المتعة التى اغرقته فيها إجابة هيكل . انفجر:

– ماذا يمكن أن أقول لك؟ أنا متفق فى كل شىء مع هيكل . وما قاله يمكن لطفل أن يفهمه . ولكن أنت أصم . أنت تحمل شرفك الثورى كامرأة حامل فخورة ببطنها . بشرفى . أنت تؤلمنى .

– هكذا نمارس الخيانة ، نسب ما نعبده ، الكلب أحسن منك .

تدخل هيكل: يا طاهر افندى . لا تظلم صديقى كريم . فربما أن لديه شيئا آخر الآن . من حقه أن يتغير ، لا تنس أن الافكار تتطور .

علق طاهر: ولكنه لا يفكر فى شىء بالمرة ، إنه متملق ، وأنا اعرفه ، يتصرف كأنه يحب الشعب كى يحس بمتعة السخرية منه . لقد خدعه وخدعنى فى نفس الوقت .

قال هيكل: لا تكن ظالما . فكريم لم يخدع أحدا . فهذا الأمر يتطلب طموحا كبيرا . وليس لكريم أى طموح . إنه فقط يحب الحياة .

– هذا ما يزعمه . لو كنت مكانك لا رتبت فيه . هل تعرف ياهيكل افندى أنه اعترف لى أنه مستعد أن يفديك بحياته لو سألته ذلك؟ هذه مبالغة أليس كذلك؟ ومع ذلك يبدو لىّ مخلصا . لقد كان كذلك عندما أراد أن يهب الثورة حياته .

صاح كريم: ليس نفس الشيء . أنت تخلط الأوراق أيها البائس . ليس حبى لهيكل بهدف سياسى . أنا لا أحبه كى أخلصه من ضغط عليه . فهو حر . ليس عليك سوى أن تمارس حبك لشخص ينشر السعادة لمستقبل الشعب المسكين .

سأل طاهر وهو ينظر إلى هيكل بطريقة ملتوية: أريد أن أعرف أى رجل أنت كى تلهم المشاعر لمثل هذا القمىء؟

– أنا رجل بسيط يا طاهر افندى . فقط أنقل أرائى للآخرين عن الشرف والكرامة . انتظر شيئا آخر ممن هن على شاكلتى . صديقى كريم حر فى أن يغير غدا طريقته فى التفكير . وأنا لا ألومه فى ذلك . لأنه مهمل فعلا ، لن يصبح مثيرا للملل وهذا شىء مهم .

– ما هو أهم شيء فى الانسان حسب رأيك؟

الكمال الرائع الذى أحسه معه . وخاصة فى أكثر الأشياء بساطة فى الكون . هذه أشياء تفرحنى . وهكذا تعرفت على ثراء الحب المحبوس داخل الانسان .

يا له من أسلوب بشع وكريه ، فهذا الرجل مازال يكلمه عن البهجة ، هل يؤمن بها حقا؟ ألا يوجد بالنسبة له شيء سواها فوق الأرض؟ هذه الأرض الخربة ، التى أحرقها البشر ألف مرة . كيف يجدها مكانا للحب والسلام؟ يجب أن يكون وغدا كى يجامل هؤلاء المصابين بالهذيان ومهاويس السعادة . مع ذلك فإن "هيكل" ليس وغدا ولا مجنونا . إنه يريد أن يسلى الشعب ويعلمه الضحك من الطغاة . من السهل أن تقول هذا . ولكن الشعب أمامه أشياء أخرى عليه أن يتعلمها . وجسامة مهمته تجعله مريضا بالأمل .

عامله هيكل برقة ، فأحس بالسعادة فى أعماقه . ولم يكن هذا النموذج الثورى مصدر تفاهة . انه بالتاكيد محل تقدير . هذه السترة البالية واللياقة المنشاة ورابطة العنق المشدودة حتى طرفها . تعكس مواقفه تجاه بهرجة مجتمع يريد ان يلحق به الضرر ، انه ثورى . لكن بكرامة ، يرتدى نفس زى الخصم ومستعد ان يأخذ مكانه . أى نموذج رائع فى هذا العصر . اراد هيكل ان يتبناه . وان يحتفظ به على مقربة منه . كنموذج للسخرية ، لكنه كان حلما مهووسا ، فهو ليس ثريا بالقدر الكافى كى يشترى شيئا بهذه القيمة الغالية .

بدا له ان الصمت ، وهذا المتزور الذى يحمله ، يدفعان طاهر للتماسك . قال محطما الصمت:

– هذه الحقائق التى تتكلم عنها يا هيكل افندى صادرة عن وغد . هل توافق ان يكون الوغد مصدر بهجة ؟

رد هيكل: الاوغاد هم من يقتلون البهجة حولهم ، ويمكنهم ان يتصرفوا باستخفاف . انهم يثيرون عصبيتى . لكنك لست من هذا النوع من البشر ، يا طاهر افندى . انا اعرف كافة طبائع البشر . لماذا تحرص على الاحتفاظ بهذا القناع الذى يجعلك تعانى؟ انا واثق انك يمكنك ان تغدوا مازحا وتافها . واحب ان اراك يوما .

ارتبكت افكار طاهر ، وأحس أن هذه الكلمات المعسولة تبدو مثيرة للرعبفهيكل يعامله كرجل تافه . وهذه اكبر اهانة يمكن ان يوجهها لكبرياء مناضل . أدار وجهه وكأنه يخفى شحوبه . أحس أن عليه أن يسرع لملاحقة العالم القلق الذى ينتظره فى الخارج . على الأقل فهناك يمكنه أن يحس بالقهر . ولكنه لايحس أبدا بالتعاسة .

رفع هيكل كوب العصير الدافئ فوق المائدة المنخفضة أمامهما ، وقال موجها كلامه إلى ضيفه:

– فى صحتك يا طاهر افندى .

بدا طاهر وكأنه لم يفهم . . وبشكل إلى رفع كوبه . وأراد ان يضعه على شفتيه . لكنه تردد لحظة . حطمه فجأة فوق الارض ، وقد بدا عليه الغيظ والغضب . وكأن هذه الحركة قد اعادت له كرامته .

انزعج كريم من تصرف زميله الغريب ، التصق بمقعده يترقب رد فعل هيكل ، ولكن هذا ظل ساكنا ، ثابتا إزاء استفزاز مضيفه وقد اصطبغ وجهه بالحمرة . بدا وكأنه يعامل طاهر بكافة أنواع الأدب .

دخل "سرى" الخادم الغرفة محدثا قرقعة دون أن ينبث بكلمة ، وراح يحمل بقايا الزجاج . لم يتكلم أحد . بدا الجميع كأنهم ينتظرون أن ينتهى من تنظيف الأرض ، وعندما خرج الخادم بعد قليل . قام طاهر ونظر إلى هيكل برهة . ثم هز رأسه وبكل تثاقل اتجه نحو الباب .

غادر هيكل الأريكة وتبعه ، ولبضع ثوان وقفا مترددين عند عتبة الباب . ثم قال هيكل:

– لم يكن هذا الشراب مسموما يا طاهر افندى . إنه عربون الصداقة .

لم يرد طاهر ، فجأة أمسكه هيكل من كتفه ، وراح يضمه إلى صدره:

– أنت رجل شجاع يا أخى طاهر . . وخسارة أن تكون ضائعا .

سأل طاهر بصوت أشبه بصرخة مخنوقة: ضائع من أجل من؟

رد هيكل: من أجلى أنا وحدى . اذهب الآن ، تصحبك السلامة

.

ثم استدار وواجه كريم الذى كان ينظر إليه فى صمت رهيب .

(11)

راحت الصغيرة تأكل المثلجات وهى تنظر إلى هيكل مـــن "تحـــت لتحت" . لاتوجد أى معان خفية فى هذه النظرة . ولكنه حياء من أعلـــى الدرجات . بدت كأنها إمرأة واعية تماماً لفرجها . هزت ملفعتها طـــويلاً وهى تتحرك بنوع من الشراهة الأثيرية . تصرف هيكل وكأنه لايراها . فغريزة الإغراء تدفعه أن يخفى نقاط ضعفه حتى ولو مع طفلة صـــغيرة ، تبدو فى الثامنة من العمر وتضع شريطاً أخضر علـــى شـــعرها المجـــدول بضفيرة واحدة . فوق ظهرها تبدو بالغة الجمال . ولكنـــه لـــيس هـــذا الجمال الكريه لأطفال أصحاء يأكلون جيداً ويكرهه هيكل بشدة . إنهـــا ناعمة الملامح . وتبدو بعض علامات الحزن فوق ظهرها فى عينيها مؤكدة أن هذا العالم يؤلمها . لذا حاول هيكل ان يهتم بها . هذه الكآبة الطفولية التى تكاد تصل إلى حد اليأس . كانت فى صحبة أمها . أقرب إلى النمرة الشرسة . يرتسم الغباء على وجهها . رغم مكانتها الاجتماعية . وضعت حول ذراعيها سواراً ثقيلاً من ذهب . عندما راحت تتكلم إلى ابنتـــها . أحس هيكل انها تكاد تنكفئ على نفسها . وكأنها خجلة انهم يشـــركونها مع هذه المخلوقة الجالسة أمامها . شكت الام ظاهرياً من هذه المنافسة . لأن نبرات صوتها كانت موصومة بحقد ابويها تجاه ذريتـــها المتمـــردة . وكأنها تود أن تنتمى إلى جنس آخر غير جنس ذويها . تمـــنى هيكـــل ان

تموت هذه الام أو تختفى فى الفضاء . ياللأوباش المرعبين . إنه يعانى مـــن أجل الصغيرة بسبب نظرتها المثيرة . لذا بدأ يتطلع اليها .

كان هناك القليل من الزبائن فى صالة الشاى التى تقع بأحد أحياء المدينة الراقية ، انه على موعد مع سعاد . وفضلاً عن الصغيرة وامها ، لم يكن هناك سوى مائدتين مشغولتين بنساء يتنـــاولن الكعـــك ويـــتكلمن بصوت خفيض . بدا هيكل مغموماً لشراهة المرأتين . ثم تـــابع حـــواره المدهش مع الصغيرة . احس هيكل انه مشغول بهما . اراد ان يعرف شيئاً عن الخيال الطفولى ، ماذاعليه ان يفترض فى الأمر؟ أحس أنـــه اكتفـــى بإخفاء قلقه ، فغير اسلوبه ، وراح يحدق فيها بشدة ، اخفضـــت الفتـــاة عينيها . وقد احمر خداها . ملأ هذا الروغان "هيكل" بالراحة ، وأصـــابه الأنين بفكرة مجنونة اعتملت فيه . ان يمسك الفتاة من يدها . ويذهب بها تحت بصر أمها الخائفة ، وهو واثق أنها سوف تتبعه .

نظرت إليه الصغيرة هذه المرة بعينين حزينتين وكأنها سوف تسكب الدمع . وقد شكت فى قدرته على انقاذها . وأن ينتزعهـــا مـــن امهـــا المتوحشة ؟ بدا لهيكل انها تنتظر منه بادرة ان يقوم وتتبعه . ولكنـــه ادرك انه يهذى . لم يتمكن قط ان يرضى هذه الرغبة الجامحة التى تستبد بـــه فى كل مرة يرى طفلاً فى صحبه أبوين غير جديرين به . ابتسم للفتاة وكأنه يعلن أسفه . شئ غريب . يبدو انها فهمت . فقد هزت رأسها فجأة برقة . واحس هيكل بقلبه يغوص فى صدره . فأغلق عينيه كى يفلت من هذه الرائعة المغموسة بالبراءة

وقفت سعاد فجأة أمامه . لم يعرفها هيكل لتوه . فهنـــاك تغـــيير واضح عليها . كانت تضع شعراً مستعاراً فوق رأسها . وقـــد ســـودت عينيها بالكحل . بدت شفتاها شاحبتين . انها تتصرف كـــإمرأة . وقـــد اكتست ملامحها بجمود غير متوقع . انه تنكر حقيقى . لاحـــظ هيكـــل تفاصيل اخرى أكثر دهشة من كل هذه "المسكرة" . فالفتـــاة وضـــعت قرطاً فى اذنها من الحجارة الكريمة الكبيرة . غالية الثمن . لم يعلق بكلمة . لأن ذلك بلا شك ماكان ينتظره .

جلست أمامه ، وللحظة ، تصرفت بكل سخرية . كشخص يضع قناعاً ويقوم بحركات ايمائية من أجل التعرف عليه . احتفظ هيكل بمظهره البارد . بدا كأنه لم ينتبه إلى هذه التغييرات ، صـــدمت بهـــذا الفضـــول الضائع ، ونظرت حولها على امل ان تعجب الحاضرين ، ولكـــن قلـــة الزبائن خيبت أملها ، وعادت نظرتها إلى الشاب ولم تتردد كـــثيراً فى ان تسأله:

– كيف تجدنى ؟

قال هيكل: رائعة . انت تذكرينى بجدتى.

بدت الفتاة الصغيرة مستاءة مصدومة . ولكن هذا لم يتفق مع نمط جمالها الجديد . لقد فهمت لتوها النظرة الباردة التى ألقاها هيكل عليها . فقد تجاوزت برغبتها وكافة الحدود التى تفصلها عن الطفولة للابد ، انها الآن امرأة . تعرف أن ذلك تجاوز كل رياء ونفاق بنى جنسها .

كفت فجأة عن الاستياء ، وقالت بلهجة امرأة أنضج من سنها:

– يجب أن تكون لطيفا معى لأننى جئت لك بخبر مدهش .

– أحكى فأنا أسمعك .

– حسن . لقد حدث اليوم أن جاء المحافظ لرؤية أبى . احتدمت بينهما مشاجرة حامية . سمعت كل شئ فالمحافظ لايريد ان يصدق أن أبى لاعلاقة له بموضوع التمثال . واعتبره مسئولاً عن موقفه .

قال هيكل: من الحق أن يغضب هذا الرجل ، لعله كان يؤنبه .

– ولسبب عظيم أنت لم تعرفه . . فالمحافظ لن يستمر أكثر من اسبوع لقد أجبره الوزير ان يقدم استقالته . هل أنت مبسوط؟

راح هيكل يفكر فى الخبر . فوجئ انه لم يشعر بأى فرحة عارمة . أحس أن فراغاً سيتولد لديه بإختفاء المحافظ . وكأنهم قد نزعوا عنه لعبته التى يعرف وحده كيف يديرها ويتمتع بإستخدامها . فقد كان المحافظ بالنسبة له طيلة الوقت مصدراً لاينضب من السعادة فوق هذه الأرض . يالله . سوف يخسر النبع الذى يغذى روحه الانتقادية ، خشى هيكل أن يحل مكانه موظف تافه . طاغية . قصير الأمد . ليست لديه خيالات مريضة كسابقه . لأن قدر الطغاة يثير عصبيته اكبر من جرائمهم . ماذا يمكن ان يفعل فى زمن تافه يسوده الملل؟ استبد الحزن بهيكل لأن عليه ان يعتمد على المصادفة فيما يتعلق بالمستقبل .

نظرت له سعاد بعينين زائغتين كانت تنتظر بركاناً من السعادة . لم تفهم صمته:

– لم تقل شيئاً .

– انه خبر ممتاز . معذرة . انتِ تستحقين مكافئة .

وامسك يدها من اسفل المائدة وقبلها برقة ، وهنا رأى فى اصبعها خاتماً من الياقوت النقى . حجر كريم مدهش . سقطت عليه عيناه وكأنه اشراقه مفاجئة فى الظلمات . لم يبد أى دهشة . وضع يد الفتـــاة فـــوق المائدة . بدا الخاتم شيئاً حياً تأملته سعاد بنظرة مرعبة . قالت دون ان تبعد عينيها عن الحجر اللامع :

– ألست مندهشاً لرؤيتى بهذا الخاتم؟

– لماذا اندهش؟

– آه . اعرف لا شئ يدهشك . فأنت قليل الاهتمام بى . لذا فأنا بالغة التعاسة .

– انت تعيسة مع كل هذه الجواهر.

– لم اخبرك بكل شئ فى مسأله المحافظ . فأنا الضحية .

– كيف هذا؟

– حسن ، فقد ارتاب ابى فى أمرى فيما يتعلق بالشيك . لقد ألمح بذلك فى الصحيفة التى ارسلته لها . ولم يكاشفنى مباشراً . ومع ذلـــك لم يكف عن التلميح بنوي أى ازائه .

– هل يجعلك هذا تعيسة؟

– لا . ولكنه الآن يريد ان يتخلص منى . لايريد ان يرانى ألـــف حوله ، ويصر ان يزوجنى ، الا ترى انه عقاب شديد؟

– لكن ، ماذا تفعل المجوهرات فى ذلك؟

– لقد فهمت ، فإنا لن اتركه يفعل . اجبته اننى لا اريد الـــزواج فهذا يورطنى فى المزيد من المتاعب . وكى يغرينى ، اعطـــانى مجـــوهرات المرحومة أمى . التى يحتفظ لى بها فى خزينته حتى اكبر . ولكنه قرر ابتداء من الآن . اننى يجب ان اتصرف كإمرأة فى سن الزواج . يريد ان يكون صهره القادم اهلاً لكل الثروة التى احملها له .

– انه على حق . فهو يعرف نوع الرجال الذين يناسبونه . يمكنك ان تنامى قريرة العين . فسرعان ما ستجدين زوجاً .

– اذن ، فأنت لن تغضب منى .

– لاتتصرفى كضحية ، فستكونين سعيدة فى زواجك .

– لااستطيع ان افعل شيئاُ آخر . طالما انك لم تطلب ذلك منى .

قال هيكل بشكل قاطع: انا لا أحب المجوهرات .

وهكذا انتهت علاقة غرامية . نهاية اكثر سخرية مـــن المتوقـــع . فهيكل لم يأمل فى شئ . ولم يشعر بأى يقين انها ليست ســـوى بضـــعة مجوهرات . لقد اختفت العاشقة الصغيرة ، لم يتبق سوى إمرأة صـــاحبة حظوة وثروة . إنه لم يعتمد على ممتلكاته الماديه . كفت فجأة عن التسلية كى تعود إلى عالمها العفن ، لا تستطيع ان تنغمس ســـوى فى الخـــداع . فالخداع أساس حياتها . وهى واعيه له . لقد استخدمت افضل مواهبها . كى تروى عطشها من الغرور والانتصارات السهلة على الرجال .

اراد هيكل ان يسكب بعض الدموع على تلك المخلوقة المدللـــة التى اختفت من حياته . ولكن عينيه جامدتين . بدا ألمه نوعاً من الطيبـــة والتخفف . انتابه الاحساس بأنه يولد من جديد . حراً ، مـــلأه شـــعور باليقين . نظر نحو الفتاة الصغيرة التى تكره امها فوجد وجهها وقد امـــتلأ بإنتعاش برئ كاد ان يفقده . انتهت من التهام المثلجات واتكأت علـــى المائدة . وضعت يدها فوق خدها بشكل عبوس . احـــس هيكـــل انهـــا مستاءة منه فإبتسم لغيرتها . تمتمت سعاد :

– كيف اتصرف . كيف استطيع ببساطة ان اتكلم مع رجل آخر ، لقد عرفتك ليس فقط لانى احبك . بل لانى سوف اصاب بملل حـــتى الموت . انا التى يشتهيها الناس .

كان يعرف ان هذا ليس حقيقة ، وانها سرعان ما تتقبـــل بشـــاعة العالم الذى تعيش فيه . هذه البشاعة لا تبهره كثيراً . اختفت وراء بريق الجنس الثالث والاقنعة . ورغم كل المحيطين بها الذين تبـــدو صـــحبتهم رائعة . فإنها لن تجد سوى الرعب خلف هذه الوجوه المبتسمة المشـــدوهة بجمالها . كان يعرف خطر الغرور على المرأة . انها تصاب بالملل عنـــدما يكف الاعجاب من حولها . لكن سعاد جميلة بما فيه الكفاية ولن تصـــاب قط بالملل .

لكن فيما الخداع؟ لقد نفذت دورها بمهارة وحذق . كما اعجزته كنوز جسدها اللدن بشكل يستأهل الاحتـــرام . وعليـــه ان يتبعهـــا فى وساوسها ومخاوفها . فهو ليس ناكراً للجميل . إنها فى حاجة لبعض مـــن رقته . قال:

– علمتك ان تتمتعى من كل شئ فى العالم . اذن لاتخشى شـــيئا . ولن تصابى بالملل .

سألت: هل تفكرفى؟– ثم وبحركـــة تلميحيـــة– : ولكـــن لـــيس بطريقتك الساخر؟ فأنا أعرفك .

– سأفكر فيك بكثير من الجدية . واعدك بذلك .

وظلا لحظة صامتين . ثم فتحت سعاد حقيبتـــها وراحـــت تعـــدل مكياجها ، بدا هيكل مبهورا بالطريقة الذى تسلكها وهى تقـــوم بهـــذه اللمسات . انها المرة الاولى التى يرى فيها الفتاة تهتم بمثل هذه الحركـــة

البذيئة . تضع احمر شفاه فوق شفتيها الفاغرتين . بدت فخــورة بأنهــا اصبحت فى مصاف النساء .

انتاب هيكل ضيقا وبعض الغيظ لرؤية هذا التلطيخ الذى يــدنس الصورة التى أراد أن يحتفظ بها للفتاة . أدار رأسه منتظرا أن تنتهى مــن عملها الفاحش .

وعندما استعدت . قام . وخرجا من صالة الشــاى ثم افترقــا فى الشارع .

أتى الشارع لهيكل بمشاعر جديدة . كان يئن وهو يتنفس بصعوبة ، فهو حساس للوعود المتراكمة فى طريقه . هناك وجوه اخرى . ومشاعر اخرى تنتظره ، فكر فى حبه الفقيد قد اتسم بنقاء غريزى . هكذا دائماً تنتهى كل مغامرة . لقد جرب شعوراًغريباً من السعادة . وكأنــه تــرك للمرأة التى انفصل عنها جزءا من مشاعره . اما الجزء الباقى فعليــه ان يصوغ فى العالم كله .

ذكره زحام الشارع ان احداً من بين ذلك الحشد الــذى يقابلــه لايشك فى وجود شئ مهم يعرفه هو وحده . فســوف يقــدم المحــافظ استقالته قريباً . أحس هيكل بغته أن هذا شئ يثير السعادة التى يــدخرها لأصدقائه . أسرع الخطى وراح يبحث عن بائع الياسمين الذى يتجــول عادة فى الدروب . رآه واقفا فى ركن من الباب . اشعث وبادى الحــزن رغم الزهرة الحمراء التى يضعها فوق اذنه . اقترب منه واشــترى باقــة

رقيقة من الياسمين دسها فى جيب سترته الداخلى . ثم اوقــف عربـــة . واعطى الحوذى عنوان عرفى .

كان جالسا فوق قمطره . فى صالة الفصل الخاويـــة . راح عـــرفى يركز انتباهه فى الكتاب الذى يقرؤه . كان ضؤ النـــهار يتســـرب مـــن الادوار الارضية . ولكنه ضؤ باهت شاحب كأنه الزنزانة . ترك عـــرفى قراءته ورفع نظارته ودعك عينيه بإنزعاج . امتلأت رأسه بأفكار مريرة . تتعلق بموضوع أمه التى تسبب له حرق الدم . كان يشك فى القرار الذى اتخذه . فأحد اصدقائه الأطباء نصحه ان يضع العجوز فى مصحة للعنايـــة بها بأحدث الأساليب . هناك أمل ضعيف أن تتحسن صحتها . ولكـــن هذا الامل الضعيف لايساوى بكاؤها وهى تذهب بعيده عنه فالمكان بعيد عن المدينة ولا يمكنه ان يراها إلا لماما . رفض عرفى هذا الحـــل تمامـــا . فلديه الإحساس أن ترك امه لرعاية غرباء سوف يجعلها تنساه وستضـــيع ذكرياتها فى حنايا ذاكرتها المريضة ، اختنق قلبه ، انها الطريقة الوحيـــدة لإنقاذها من هذا العالم البشع . لكنها الشعاع الذى يلمع بالسعادة منـــذ طفولته . راح يحبس الدموع التى ترقرقت فى عينيه . وأعـــاد نظارتـــه . وعندما تأهل للقراءة . لاحظ أن الضؤ قد انخفض أكثر . وأنه لم يعد يرى شئ . أربكه ظهور هيكل فى الفصل مثل ظهور عدو خارج من الظلمات كى يكسر جليده الداخلى . كان هيكل آخر رجل يرغب رؤيته فى هذه اللحظة . لأن تكتم وساوسه وحالته المزاجية وضعفه سوف يضـــطره أن يتصرف بطريقة غير متوقعة مع المتاعب التى يثيرها . انه فى حاجة للهدؤ

والوحدة . راح يسيطر على شعور التمرد الذى يتولد فيه ضد تطفلـــه . ونزل من قمطره لمقابلته وهو يقول:

– اهلاً و سهلاً .

رد هيكل: أهلاً . اعتذر لإزعاجك . لكن كان يجب أن اراك .

إرتبك عرفى وهو يقول: أنت لاتزعجنى قط . أنا اقـــرأ . لكـــننى لاحظت أن المكان مظلم جدا . انتظر . سأبحث عن مصباح .

اعترض هيكل: لا لا ، انه افضل هكذا ، لسنا فى حاجة لمصباح .

لم يلح عرفى ، لأن رغبة ضيفه قد تقابلت معه فى البقاء فى الظلام ، فهو يخشى انه تحت نظرة هيكل الحادة يمكن ان يكشف عن معاناته . إنه لايريد ان يتكلم عن أمه . ولا عن المأزق المرعب الذى يرتطم به . إنـــه أمر يخصه . أمر يتعلق بمصيره . ارتبك ان ألمه يزيد على أيدى زنديقـــه ، ادرك انه لن يهرب بعيداً . عندما شم رائحة الياسمين تفوح من الشاب . انه يعرف اساليب هيكل . فلعله سيخرج الباقة الموجودة فى داخل سترته ، ستخرج فى اللحظة المناسبة ليقدمها لامه الـــتى ينـــوى ان يزورهـــا فى حجرتها . هذا اللقاء بين هيكل وأمه يثير عرفى فى جانبه الغريب ، المـــثير للهذيان . فهذا يتجاوز قدرته على المقاومة العصبية . تأوه . قال وهـــو يشير إلى احد المقاعد لهيكل . ثم وهو يجلس امامه فى الناحية الاخرى من المقاعد: اجلس ، اتمنى الا يكون أمر مزعج قد جاء بك .

– بل على العكس . يمكنك ان تفرح يا أخى عرفى ، فالمحـــافظ ، سيتغير .

– هل نشر فى الصحف ؟

– الصحف لم تعرف بعد . الخبر جائنى من مصدر أكيد . وعليك ان تصدق .

– ماذا حدث؟

– الأمر بسيط . مثلما فهمت . فالوزير طلب الاستقالة من المحافظ وسوف نتخلص منه خلال اسبوع .

– لم تكن لدى عرفى أية رغبة فى الفرح . فماذا يهمه مـــن تغـــيير المحافظ . لم يجد شيئاً يقوله يعبر به عن فرحته ولا عن رضاه . فكل شئ فى داخله ساكن قائم على نفس المعاناة . ومع ذلك عليه الا يخيـــب امـــل هيكل بصمت طويل . هتف بصوت امتزح بالمرارة رغماً عنه:

– هذا يرضى رغبتك؟ أليس كذلك؟

بدا له الآخر لم يسمعه ، لأن الرد لم يصل إلى هذا الوجه الســـاكن الذى يتلاشى ببطئ . تغشاه الظلمة . وراح يميز أكثر فأكثر ملامح هيكل . وهو الغارق فى متاعب جمة . انتابته فكرة أن يسمعه ينفجر فى الضحك فجأة ابلغه حدسه أن هيكل ليس فى حالة عادية . مر بداخله شيء ما غير

محدد ، وشديد القلق . استند عرفى على المقاعد ، وارهف أذنـــه وكأنـــه يستعد لسماع رسالة هامسة، رد هيكل:

– بكلمة واحدة . نعم .

– ماذا تعنى؟

– أعنى ياعزيزى عرفى . أن المستقبل يخبئ لنا مفاجآت . ويجب الا ننسى ان هناك محافظين تافهين . إيمانهم بالطغيان الماسخ يقدم لنـــا مـــادة شهية .

قال عرفى وقد تحيرقليلاً من التفسير الغريب لهيكل: أكيد . أعتقد اننا يجب ان نمتثل للفرصة المهيأة لنا . امامنا مساحة زمنية واسعة فى هذا المجال . وليس لدينا مانخشاه .

– انا لا اخشى . ولكن لدى الإحساس أن المحافظ القادم سيصاب بملل قاتل . ربما سيتصرف كأنه قد نسى غباءات سابقة . أو كرجل يريد ان تكون له قيمة . وهنا علينا ان ننقى انفسنا .

بذل عرفى مجهودا خارقاً كى يهتم بقلق هيكل حـــول موضـــوع المحافظ الجديد . إنه الآن يتسائل هل يضمن هيكل قلقه . وعن أى منفى يريد ان يتكلم؟ ولماذا يشمله فى رغبته للرحيل نحو بقعة أخـــرى أكثـــر خصوبة فى العبث . ان عرفى ليس فى حاجة للذهاب للبحث عن الخســـة والنذالة . فهى مزدهرة فى هذه الأرض وتنشر أسبابها فى كـــل مكـــان . يمكنه ان يبتهج فى منزله . حدق فى وجه صديقه المتلهف . وحـــاول أن

يدرك هذه الغيرة الخارجة عن المألوف . لم ير سوى الإبتسامة الخفيفة التى تبدو كأنها تسبح فى الظلام الذى اشتدت كثافته ، أحس أنه مادة لسخرية هذا الرجل الذى لايعرف الرحمة .

تلاشت الإبتسامة فجأة . وسمع هيكل يسأله:

– كيف حال أمك؟ لم أرها منذ فترة طويلة .

– انها دائما فى نفس الحال .

– ألا تتمنى لها أن تتحسن؟

أثار السؤال عرفى ومده بقوة روحية ، إنه واثق أن هيكل لم يسأله إلا ليتأكد منه . فهيكل يود أن تستقر كافة التغيرات المتعلقة بصحة المرأة العجوز . إحتفظ بأمله أن يراها دائماً فى نفس الحال ، مصابة بجنونها الخاص .

استبدت بعرفى رغبة أن يوقعه فى فخ . لعله يكشف سبب هذا الإهتمام الزائد عن الحد . قال: نصحونى أن أرسلها إلى مصحة . لكننى متردد .

– افهم سبب ترددك .

– ولكن ، ربما سأنتهى إلى حل .

صاح هيكل بحماس يدركه عرفى أية لحظة: لاتفعل هــذا قــط . لاتفترقا أبداً ياأخى عرفى . ماذا يمكن أن تنتظر من هؤلاء الناس؟ أنــت هكذا كأنك تسلمها الجلاد .

– انها فى حاجة للرعاية ولا اســتطيع أن ادبرهــا لــك . وهــم يستخدمون فى هذه المصحة أساليب علاج جديدة . قيل لى أن هناك أمل للشفاء .

– أنت طفل . لو كانوا قادرين أن يعيدوا لها عقلها . فلمــاذا لا يطبقون أساليبهم على كل البشر . لا . لايمكن اية قوة ان تنزع الانسان من شره . لاتجعلها هدفاً لتجاربهم القذرة . فسوف تتعذب .

– ألا تعتقد انها تتعذب؟

– إذا اردت ان تعرف ، فهى ليست لديها أية فكرة عن المعاناة ، نحن فقط الذين نراها تتعذب .

– كيف . أنت ، ياهيكل . هل تتعذب؟

مد هيكل يده ، ولمس ذراع الناظر بشئ من التوسل:

– لاتتركها لهؤلاء الأوغاد . فهذا عمل وحشى .

سكت وأدار رأسه ، كيف يمكنه ان يتركها فى ضــعفها . مــرت لحظة من الألم ، والخوف ألا يرى العجوز المجنونة . وأن يفقدها للأبــد . ندم على كلماته ، ومشاعره التى أبداها . كيف سيفكر عرفى فيه؟ تكهن

الناظر الذى بوغت ، وهو ينتظر . بينما راحت نظرته تحـــوم فى الظـــلام الكثيف الذى يسيطر الآن على الفصل . لم يميز سوى الحروف الهجائيـــة المكتوبة بالطباشير فوق السبورة ، تبدو اشبه بحروف هيروغليفية لامعة . وببطئ ، كأنه يمتثل لحدسه الباطنى . قام واخترق صف المقاعد وصـــعد المنصة ثم جلس على قمطر الناظر البعيد ، وفى أسفله رأى عرفى ، مهموماً ، مكتوماً ، يلفه الظلام . بدا له أن آلاف السنين قد مرت منذ أن باح له بسره . وأنه يمكن الآن أن ينظر للأمام بعد ان فهم .

تخففت الدهشة التى استبدت بعرفى قليلاً واستعاد ثقته فى نفســـه . وأراد أن يصرخ فى هيكل معبراً عن فرحته لأنه قريب منه فى بأسه ، ذلك الألم الشديد الذى قتل فيه شيئاً ما للأبد . يعرف أن "هيكـــل" متأهـــب للخطر الذى يمزق روحه . إبتعد عنه والتصق بالحائط فى كبرياء . فماذا فعل وهو جالس فوق القمطر . مخلوق ضائع وحيد فوق صخرة؟ لماذا لا يقترب منه . يمد يده فى عناق أخوى حاول أن يتكلم . لكن الكلمـــات انحشرت فى حلقه ، وسمع صوت هيكل يدوى فى الصمت:

– هل يمكن أن أراها؟

قال عرفى: ستكون سعيدة . تعال .

لحق به هيكل . خرج الإثنان من الفصل . وسلكا الممـــر الـــذى يؤدى إلى غرفة العجوز المجنونة .

كان باب الغرفة مفتوحاً . ينساب منها ضوء خافت . توقف عرفى عند العتبة ، قلقاً ألا يكتشف أمه . لم يرها بأى مكان بالغرفة . أنها نوع من الزنزانة ذات نافذة مسدودة بألواح الخشب . من أجل وقاية المجنونة من نظرات الجيران المختلسة . تضم سريراً حديدياً صغيراً . وكومودينو وأريكة مغطاة بقماش من الجوت . وفوق الارض قطعة مـــن الحصـــير . ومصباح غاز فوق الكومودينو . يشع ضوؤه . هتف عرفى :

– اماه؟

لم يسمع رداً . ولكن عرفى أحس بشئ ما يتحرك فى الركن . بـــين السرير والحائط . اقترب يتبعه هيكل . كانت العجوز المجنونـــة جالســـة القرفصاء . انهمكت فى ترقيع خيشة موضوعة فوق ركبتها . لم تبـــد أى بادرة دهشة لوجودهما . لكن عينيها لمعتا لرؤية هيكل ، ثم راحت تحـــرك وجهها . وقالت:

– انتظرك يا أمير . بالأمس حلمت بك . فوق حصانك الابـــيض تصرع التنين المرعب . ولكن التنين كان يولد من جديد بعد كل ضــــربة ولا يموت ابداً . ولكنك ، ياامير ، كنت تضحك وتضحك ... واعرف لماذا تضحك . فأنت لم تود قتل التنين . لأنه يسليك ولا تبغى موته .

قال عرفى: أماه . قومى . واستريحى على سريرك .

لم تتحرك ، وقف هيكل أمامها ومد لها يده ليساعدها على الوقوف . طبقت يدها وابدت احتجاجاً كفتاة رشيقة مليئة بالكبريـــاء . بـــدت

نحافتها الشديدة تحت ثوبها القطنى وجعلها خفيفة كالريشة . ثم راحـــت ترتب الخيوط البيضاءفى شعرها وهى تدندن . تمددت فوق السرير . وفى ذبول كأنها محظية تنتظر عشاقها وتعرض عليهم إغرائها الساذج .

هنا سحب هيكل باقة الياسمين من جيبه الـــداخلى وقدمـــه لهـــا . ابتهجت ورفعتها إلى انفها . تنسمت عطر الزهور كإمرأة إعتادت هـــذا النـــوع من الســـلوك وقالت مدندنة :

– ياأمير . انت تحرجنى كثيراً . انت تدمر نفسك من أجل إمـــرأة عجوز مثلى .

رد هيكل: ليس هذا سوى شئ صغير ، قياساً للسعادة التى تهبيننى اياه .

– سعادة ، أنا؟ يا أمير ، أنت تسخر من شيخوختى؟

– تعرفين انى لا اجرؤ قط .

– ومع ذلك اعرف انك رجل ساحر .

– ربما بعيداً عنك . لكن هنا قلبى مفعم بالحزن .

– قلبك كبير ياأمير . إنه فى حاجة إلى غابـــات شاســـعة . مـــاذا يمكنك أن تجد فى هذا الكوخ الفقير . لكن فى الخارج هناك روائع؟ لماذا تضيع وقتك هنا؟

وحركت باقة الياسمين كأنها مروحة . احست ان عطرها يفوح فى الغرفة فرفص هيكل عند طرف السرير . بدا كأنه تجاهل وجود عرفى نظر إلى العجوز المجنون ببهجة بادية ، وقال :

– لايوجد شئ فى الخارج يمكنك أن تندمى عليه . صدقينى .

اغلقت عينيها ثم غرقت فى تأمل شديد . ألقت رأسها على الوسادة ، وضمت باقة الياسمين بقوة على خياشيمها ، وكأنها تتنفس منها عطر العالم الخارجى ، عالم الأحياء الذى حاولت ان تتذكره .

راح عرفى يقاوم أحاسيسه وهو واقف خلف هيكل . فوق كتفى الشاب رأى أمه متمددة فوق السرير كالموتى . لم يجرؤ ان يتدخل فيما بدا له هبة السماء . لقد حقق هيكل معجزة حين أدار مثل هذا الحديث مع امه؟ إنه يكلمها بطريقة طبيعية . وكأنه يتكلم إلى كائن عاقل . والعجوز ترد بنفس النغمة وكأن مخها المضروب قد بدأ فى العمل بشكل طبيعى . هنا تسائل عرفى عما إذا كانت أمه مجنونة حقيقة أو انها تمثل مسرحية ، سرعان ما ألغى فكرته هذه . فالمهم بالنسبة له الآن ، هو ان تخرج أمه من ليلها وتعود إلى نبلها وبهجتها .

فتحت العجوز عينيها ، وأخفضت باقة الياسمين . وسألت وفى صوتها نبرة قلق:

– كيف حال البشر الآن يأمير؟ أذكر انهم كانوا أشرار .

بدت وكأنها تستعلم عن بلد غريب زارته فى شبابها . ولم تعد إليــه قط ، رد هيكل :

– أنهم هكذا دائماً . ولكن غباءهم مازال ممتعاً .

– أنت لا تحمل أحقاد فى قلبك . شاهدتك فى حلمى تلك الليلة . لم أر أى بادرة سؤ نية فى عينيك وأنت تحارب التنين . ومع ذلك أراد أن يتخلص منك ياأمير فإنتبه إلى نفسك .

– لن اجعله يتخلص منى . فلست ممن يــتم الــتخلص منــهم . سأدافع عن نفسى بلا هوادة . لاتقلقى على .

طبقت يديها ، ووضعتهما على شفتيها كأنها عاشقة متيمــة تــرى حبيبها يرحل إلى حرب شرسة .

– أجل . دافع عن نفسك . وعد لى منتصراً .

تأمله هيكل متأثراً ، متوغلاً بكل وجوده فيما وراء هــذا الوجــه النحيل الرقيق ، الخالى من تجاعيد الشيخوخة . لم ير وجهاً بمثــل هــذا الصفاء . وهذه المساحة الخاوية من أى دناءة حتى وجه الطفلة الصــغيرة فى صاله الشاى . بدا له الآن مطبوعاً بعلامات فاحشة ، حيث امتزجت نظراتها بالخداع والترقب كأنها تقوم بإغراء خصم غــادر . مســتخدمة سلاح الانوثة . لاشئ يقارن بالسلام فى تلك اللحظة . إنه شخص مخلص من كافة تملقات البشر الثقيلة . لايمكنه ان يحس بالسلام من هذا العالم إلا

امام هذه المجنونة التى نست متاعب الغرور . وأصبحت بالنسبة له مجـــرد مخلوق آدمى بلا مرارة ولا طموحات .

لاحظ ان المرأة تنظر له بسعادة . وكأنها ترتاب فى السلام الرائـــع الذى يسكنها:

– نحن متفاهمان . أليس كذلك ياأمير؟

– قال هيكل: طبعاً . ولكن يجب الا تخبرى أحد بسرنا .

هنا تركت السرير ، ثم بدأت فى القفـــز والـــدوران فى المســـاحة الضيقة بين السرير والكمودينو . راح طرف فستانها يتسع حول جسمها الضامر . وظهر ساقاها العجفاوان المليئتان ببقع سمراء . راحـــت تعيـــد ترتيل أغنية كئيبة . لكنها مليئة بالخصوبة والشباب ، بصوت فتاة مبتهجة تلعب فى حديقة طفولتها .

لم يبد هيكل أى حركة كى يوقف من رقصها المفـــاجئ . أحـــس بالسعادة وهو ينظر اليها برقة . وكأن المنظر يشكل جمالاً فريداً لشئ غير مألوف .

شحب عرقى ، وللحظة قصيرة ، ود أن يوقفها . وأن يفسد هـــذه الرقصة المرتعشة التى تعيد امه إلى جنونها . ولكن شيئاً ما اعتمل فيه إزاء موقف هيكل فهم فجأة إن إعتياد الجنون لا يسب بأى رعـــب . فمـــن السهل أن يعيش مع امه أفضل من أى شخص عاقل . فالجنون لا يضيف شيئاً . بدت له الفكرة كأنها خلاص . فراح يبتسم لأمه .

توقفت المرأة فجأة عن دورانها وعادت لتستريح على ســـريرها . لاهثة . وقد تجمدت ملامح وجهها من المتعة . قالت موجهـــة كلامهـــا لابنها :

– يا صغير . اشتر لى رداء جديدا . فردائى قديم . وأريد أن أكون جاهزة فى المرة القادمة عندما يأتى الأمير لزيارتى . إنه يقدم لى الزهور . وأنا استقبله كشحاذة . يجب أن يرانى جميلة .

فتشت عن باقة الياسمين ، قبضت عليها بيديها . ثم سقطت رأسها على الوسادة وبدأت كأنها تغرق فى نوم فاتر.

تأملها الرجلان لحظة ، ثم خرجا فى صمت من الحجرة.

لم يجرؤ عرفى أن يقول شيئا . فهو لم يشعر بمثل هذه السعادة مـــن قبل وبدا له أن عبئا ثقيلا قد نزل من فوق كتفيه . فأصبح حرا طليقـــا . ولم يعد مقوس الظهر . رفع رأسه كى ينظر إلى هيكل الذى بلـــغ بـــاب الشارع.

ضما أيديهما قبل أن يفترقا عند باب "البـــدروم" ، وفى الشـــارع الخالى الضعيف الإضاءة قال هيكل :

– أنت تملك بضاعة ثمينة . لا تتركها قط للأوغاد.

رد عرفى : لا تقلق ، الأن فهمت . واعذرنى يا أخى هيكل انـــنى ظللت لا افهم وقتا طويلا .

وابتعد هيكل . ثم استدار بعد خطوات و رأى عرفى واقفـا عنـد مدخل "البدروم" ، راح يحييه بإشارة أخيرة من يده . تحية مليئة بـالمودة والشموخ . وكأنه سلطان راحل إلى منفاه . بعيدا عن أملاكه الغالية .

(12)

لم تكن سوى سحابة عابرة فوق المدينة ، اختفت الشمس تماما وكأن عاصفة ما قد هبت . صنعت الطائرة الورقية بقعة صفراء فى أعماق السماء الداكنة تتأرجح وتدفعها زوابع الرياح التى تهب من البحر . راح زيلها الطويل يتمايل ويتراقص كالثعبان يخرج من بطن السحب ، مشدوه بالفراغ . أمسك كريم الخيط بيد ثابتة ، وراح يتحرك فوق السطح من ركن لآخر . محركا الطائرة الورقية ، وهى ترتفع أكثر فأكثر . إنها جديدة . كبيرة الحجم ويجرها بكل متعة ووحشية . صنعها من أجل "قمر" العاهرة الصغيرة ، التى عادت البارحة . التقاها وهو عائد لمنزله ، جالسة تنتظره على السلم . إعتذرت لأنها ازعجته ، ولكن كريم رفعها بين ذراعيه وحملها الى حجرته . ومارس الحب معها طيلة الليل . وعندما إستيقظ دون أن يقدم لها شيئاً . ترى ماذا ؟ ليس معه مال أو شئ ثمين يمكن أن يعبر به عن مشاعره المجانية التى يحسها نحوها . فكر فى صناعه طائرة ورقية . طائرة ورقية لايبيعها . إنها عمل فنى راق . إختار ادواته بعناية . وكأنه سوف يبنى قصراً لإمرأة احلامه.

الآن ، ينتظر ان تبلغ الطائرة هدفها ، هاهى ثابتة فى السماء ، نادى الفتاة التى جائت تتأملها . بدا فخوراً بهذا النجاح الطيب الذى حققه بالطائرة ، فالفتاة سوف تعجب بعمله . أليست هذه الهدية رائعة كى يقدمها لها ؟ طائرة جميله تطير اثناء العواصف الشديدة فى السماء

وكأنها عاشقة تتأوه ؟ ابتسم خفيفاً لشاعريته . وراح يوجه الطائرة الثقيلة بحذر عبر مطبات الهواء خاشياً أن يصيبها ضرر . فعند أقل بادرة من عدم تركيزه يمكن لهديته الجميلة ان تتحول الى قطع . أحس للحظة عابرة بضيق . ثم تنفس الصعداء . لقد وصل الى هدفه ، وهاهى الطائرة متوازنة فى أعلى السماء . وحيدة . أحس بها كريم تهتز فى طرف الخيط . توقف ، وهو يلهث ، وقد امتلأ جذعه العارى بالعرق . واستند على جدار السطح للحظة طويلة ، وهو يتأمل صنيعته بكبرياء شديد.

– الحمد لله . أرى انك تتسلى جيداً.

ارتبك كريم ، تأرجحت الطائرة بعيداً فى خفة ، يجب ان يسحبها على الخيط ليوجهها . عرف صوته دون أن يبعد عينيه من فوق الطائرة الورقية ، صاح:

– أهلاً ، طاهر . صدقنى . أنا لا أتسلى . أنا أعمل .

تقدم طاهر نحو السطح ، وهو يرتدى بدلته الضيقة ، وياقته القصيرة ورابطة عنقه . لم يكن هذه المرة حافياً . بل يرتدى حذاء بنعل جديد ضخم . صنع كى يعيش طويلاً . أحدث ضجة ملحوظة فوق البلاط الذى يغطى أرض السطح . بدت هذه الضجة كأنها تعجب طاهر . لأنه فى كل خطوة يئن فى كرامته . اقترب من كريم . ووضع يده على كتفه العارى . وقال:

– أنا سعيد ان أراك فى كدك اليومى . فلديك سطح رائع . كما أعرف . اسمع ، يجب ان اعتذر عن تلك الأمسية . لقد تفهم صديقك هيكل موقفى . ولكننى يجب ان اتكلم اليك.

قال كريم : لا أريد شيئا .

لم ينظر الى طاهر . بل استمر فى تأمل الطائرة بعينيه . الآن ابتعدت السحابة الكبيرة . وظهرت الشمس ، ساطعة مثلما شحبت أثناء هذا الغياب الطويل . راحت اشعتها تنعكس على هيكل الطائرة الورقية الصفراء ، التى تبعد فى زرقة السماء وكأنها انغمست فى الذهب . أحس كريم بالمتعة لكل هذا الذهب الذى يصبغ أطراف الخيط . ولكن متعته افسدتها أشياء أكثر واقعية . فحضور طاهر الى سطحه لم يكن على هواه بالمرة . بل على العكس بدا مرعباً . فقد وضعه طاهر فى موقف صعب . أيضاً فإن وجود شخص ثورى عنده يمكن ان يسبب له مشاكل لا حصر لها . لأنه يعرف ان الشرطة يجب ان تستجوبه عن زميله القديم . واذا عرفت ، لسوء الحظ ، نبأ هذه الزيارة ، فلن يفوتهم ان يسببوا له المتاعب . منها أنهم سيمنعونه من الاقامة فى هذا السطح . سوف يضطرونه ان يغادره ، وهذا أمر متوقع بلا أدنى شك . ولكن ماذا يفعل ؟ لايمكنه ان يسد بابه أمام طاهر . فهذا لايتناسب قط مع طبيعته . فهو لديه أعلى قدر من حسن الضيافة ، ومهما حدث فهو يعرف انه يطرد زميلا قديما من بيته الى الابد.

بدا طاهر غاضبا من الطريقة التى استقبله بها . اعتقد ان كريم مشغول بطائرته الورقية عنه . قال له:

– أترك هذه الطائرة . وانظر الى .

قال كريم وهو لايزال يرفع عينيه الى السماء : لقد استغرقت ساعة كى اطيرها عالياً . ألا تجد هذا جميلا؟

– لا أنوى ان اتسلى بطائرة ورقية . ماذا تتصورنى ؟ هيا . كف عن اللعب يجب انا أكلمك فى اشياء جادة.

انتبه كريم : ماذا افعل بالله عليك ؟ هناك آلاف الرجال فى هذه المدينة ويجب ان تأتى الىّ لتكلمنى فى أشياء جادة . ألا يمكنك ان تتسلى قليلاً انظر الى هذه الطائرة الورقية . انها تحفة.

قال طاهر بصوت غامض : لقد جئت اليك لأنك تسكن هذا السطح.

– هذا السطح . هل تود شراءه؟

– لاتقل مثل هذه الغباءات . أريد أن أكون هنا بين الساعة التاسعة والعاشرة . سيكون سهلاً عليك ان تؤدى كل هذه الخدمة ؟

– ماذا ستفعل . هل ستستقبل فتاة ؟ سأكون سعيداً ان أعيرك حجرتى.

سكت طاهر . رفع رأسه ونظر الى الطائرة الورقية الساكنة فى السماء. يجب عليه ان يجرب كافة أشكال الصبر كى ينجح فى لفت انتباه كريم . أما بالنسبة لإقناعه بمشروعه . فإن هذا أمر بالغ التعقيد . هذا الغبى يتصرف كمهندس لأنه يطير طائرة ورقية . لاعلاج لمثل هذا التدنى .. اعتقد طاهر انه يواجه أشد مايكرهه وهو الدخول مباشرة فى الموضوع . كيف يبلغه ؟ كيف يدخل فى الأمر طالما أنه ينكر مسألة الكرامة والشرف ؟ هذه الكنوز الروحية التى يحتفظ بها الشحاذون المساكين فى اثوابهم الرثة . انه يبدو كطفل مشدود خلف طائرته . بينما الشعب يعانى ، ويغرق المدينة فى قاذوراتها . ود طاهر ان يبكى . وان يصرخ ويضربه . ولكنه كظم غيظه لأنه يمثل هذا الشعب ، واجبه يتطلب السكوت مؤقتاً وابتلاع مرارته . وألا يفكر سوى فى هدف محدد . قال بلهجة ناعمة ودودة كانه يأمل أن يصحبه كريم الى حفل :

– هل تعرف أن هناك احتفالاً كبيراًهذا المساء فى الكازينو.

– لا . بشرفى . فلست إجتماعياً مثلما تعتقد .

– الأمر لا يتعلق بالاجتماعيات . فأنا اتجنبها . وأنت تعرف ان المحافظ سيذهب. فهو راعى الحفل.

سأل كريم ، وقد اصابه القلق فجأة من اسم المحافظ:

– وماذا؟

– سيمر بسيارته ، ومعه موكبه من الدراجات البخارية ، على طريق الكورنيش . انها الوسيلة الوحيدة الممكنة . لقد درست الموقف.

– ماذا تقصد بالضبط ؟ انا لا افهم شيئا قط.

أخذ طاهر وقته قبل ان يرد . نظر الى وجه كريم الرقيق . وقد شدد يديه على خيط الطائرة الورقية . ثم رمى كلامه:

– حسناً ، الأمر بسيط . سأكون هنا ومعى قنبلة . سألقيها على سيارته . فهذا أحسن مكان.

صاح كريم وهو يرمق طاهر بعينيه الخائفتين : نحن هنا . اشك ان هناك قنبلة فى أى مكان.

تمايلت الطائرة الورقية على هواها . ثم انحرفت بشكل مرعب ، وسقطت على مسافة أمتار . كطائرة ضائعة . جرى كريم فوق السطح دون ان يثير قلق طاهر . متناسياً الموضوع الهام الذى حدثه عنه . لم يفكر سوى فى انقاذ طائرته الورقية من الكارثة . ثم ثارت أحاسيسه . وبكل سرعة ، حاول أن يعيد الطائرة الورقية الى توازنها . ثم امسكها فى وسط السطح ، وأحس بفخر لأنه استطاع ان يسيطر عليها بفضل خبرته فى السباحة الجوية . صاح طاهر:

– برافو . لقد امسكتها بأعجوبة ، اعترف انك ادهشتنى.

كان المديح المنطلق من طاهر ممزوجاً بسلوك دبلوماسى ثقيل . أحس فيه كريم بالغثيان . رد دون ان يلتفت اليه.

– ياعزيزى طاهر ، اعرف اننى لا اشاركك قط فى أعمال العنف وسطح بيتى ليس سلخانة.

قال طاهر وهو يقترب منه : لايمكنك ان ترفضنى ، لأننى لست الوحيد الذى ترفضه . لكن كل زملائنا ، لأنك تعرف أنهم طردونى.

إبتسم كريم فى داخله . وبردائه الضيق وياقته القصيرة الجامدة ورابطة عنقه. بدا طاهر أشبه بشخص متواضع أراد أن يجعله يعرف ان وراءه مؤسسة ، شعباً ربما ، مستخدماً فمه ، محاولاً ان يمتلكه بالكلمات . هل يعامله كشخص غبى؟ انتابت كريم شفقه من سذاجته : إنه واثق ان كريم لن يتكلم لأحد عن مشروعه . فهو كتوم . كما ان وسواسه يجعله يؤمن بمناهضة الظلم والقهر ، إنه يغلى من داخله بما يحمله من آراء حول المعناة الإنسانية ، أنه مستعد ان يرتكب جريمة عنيفه قد تقوده الى المشنقه حتماً ، راح يتصرف كرجل ضرير يمشى نحو هاوية ، فالأمر بالنسبة له غريزة مصيرية ، فوق جبينه إنه منذ ميلاده . ويجب ان ينجزه . أنه بلا شك لايعرف ان المحافظ سيترك منصبه . وهو بذلك سيقتل رجل مات معنوياً.

قال كريم:

– إسمعنى جيداً، فالحافظ فقد وظيفته . لم يبق أمامه سوى ساعات . فالوزير طلب منه الاستقالة . وقريباً لن يكون سوى ذكرى . أعرف هذا من مصدر موثوق.

قال طاهر بكل ازدراء : لاتحاول أن تحكى لى قصصاً . فمصادرك ساخرة هل تريد ان تجعلنى أصدق أن اعلاناتكم قد اقالته؟

– نعم ، إعلاناتنا . أعرف أنه من الصعب عليك أن تصدق . لكنن أقسم لك . فلتتخل عن مشروعك .

– أبدا . لقد قررنا أن نضربه ضربة قاضية . سيموت الطاغية . وقد قلت هذا . وسوف تساعدنا .

ما لم يقله لكريم أنه يدبر هذا الاغتيال كى يغسل العار ليكافئ دعابات ونزوات هيكل . هذا الصفيق محطم الثورة . سوف تشك فيه الشرطة على أنه مدير هذه المذبحة ، مثل السم الذى يسرى فى الدم . فإنه لم يتحمل أن يستكمل نضاله ما دام الاتهام الظالم يقلب أفكاره ، فعليه أن يكشف للسلطة أن لم يتخل عن أساليبه ، وأن يبلغهم أنه من الممكن الاعتماد عليه . فلا يتركونه ينام فى هدوء ، ود أن يهزهم بحدث بشع يجعلهم يفهمون أن كل هذه الاعلانات وكل هذه القصص بشأن إقامة تمثال للمحافظ ، لا تتفق مع مفاهيمه فى قلب السلطة . وبعد هذا الاغتيال سيضطرون إلى معالجة أخطائهم ، إنها المحاولة الوحيدة التى أمامه كى ينفذ شرف حزبه فى مواجهة الحكومة، فطاهر لا يميل للأساليب

الأقل دموية، قال كريم الذى بدا فى استعادة طائرته الورقية وهو يسحب الخيط ، ويلفه حول قبضته :

– من الأفضل ألا تعتمد علىّ ، فأنا لن أوافق قط أن أمشى على دربك .

هتف طاهر غاضبا : هذه ليست حيلة ، بل بسببق الشعب الذى أصبح لعبة . ألا تحب هذا الشعب ؟

هتف كريم غاضبا : أنا لا أحب أمى . لماذا تريدنى أن أحب الشعب ؟

– أنت تتكلم كوغد . قل إنك خائف .

– بالتأكيد أنا خائف ، ماذا تعتقد ؟ فأنا أحب الحياة .

أشار طاهر وهو يلوح بإصبعه إلى الطائرة الورقية : هل هذا ما تسميه حياة ؟

قال كريم مبتسما : انها تبدو لك غريبة . أما بالنسبة لى . فطيران طائرة ورقية يكفى أن يجعلنى سعيدا ، حكومتك لا همنى إلا بقدر ما تسليني ، ولا يهمنى موها ، فأنا مرعوب من البكاء .

وأكمل دوران الخيط حول قبضته ، انخفضت الطائرة شيئا فشيئا . راح طاهر ينظر إليه ببرود وأحس بأنه مقهور ، أثارته وقاحة كريم ، لكنه استطاع أن يسيطر على سخطه . لم ير سوى مهمته المرعبة ، فاغتيال

المحافظ أصبح بالنسبة له مسألة حياة أو موت . لم يتراجع أمام أى عقبات أو تضحية . عليه كى يصل إلى هذا الهدف السامى أن يلح ويصر . فهذا دوره كمناضل ، ورغم أنه يعتبر كريم خائنا وجاحدا . فإنه مستعد أن ينحنى أمامه ويرجوه أن يوافق على فكرته . لكن كريم لم يعره اهتماما ، انتزعه من قلبه تماما ، فهو ليس سوى آلة يصفى بها حساباته مع المحافظ.

وصلت الطائرة الورقية إليهما كطائر ضخم جريح بدا شامخا وسط الشمس ، وضعها كريم أرضا برقة . ثم راح يجمعها ويضعها فى ركن من الشرفة .

وأثناء ذلك بدا طاهر فريسة لسراب راح يشده للأغوار ، ويدخله فى فراغ قوته المنتفخة . تأمل صامتا ، مبغوتا وغاضبا ، الفتاة الواقفة عند باب غرفة كريم . إنها "قمر" العاهرة الصغيرة الذى جاءت تلحق بحبيبها ، والتى رأت غريبا فوق السطح . تماسك. مندهشا رغما عنه . قد أخذت حماما ويبدو مظهرها منتعشا ولطيفا . يبدو جسدها الغض واضحا تحت ردائها الشفاف مما أثاره بشكل غريب . أدار طاهر عينيه بتأذ . وكأن هذا الظهور يمثل بالنسبة له صورة فاجرة فاسقة . تمتم وهو يوجه كلامه لزميله :

– انت الآن تعيش مع امرأة .

قال كريم : انها عشيقتى . تعال أقدمها لك .

– أنا لا أهتم . ولكن . لعلها سمعت حديثنا .

– لا تهتم . فلن تتخلص منك ، إنها ضحية المحافظ . فجنوده يمنعونها من التجول .

قال طاهر : يا للعنة على مثل هذه الضحية ، إنها لا تمثل أية أهمية . ليست سوى إفراز لنظام اجتماعى يقهرنا .

صاح كريم : كيف . هل تعتبرها هكذا ، أجمل إفراز فى العالم . أشعر بالسعادة التامة مع هذا النوع من الافرازات .

قبل لحظة أحس طاهر أن هناك أملا ضعيفا لإقناع كريم . ولكن بعد أن رأى هذه الفتاة ذات المظهر الوحشى ، فهم أنه من غير المجدى أن ينتظر شيئا من رجل يعيش فى فحشاء وفجور . لقد وقع كريم تحت سطوة لحم هذه الفتاة . وأصبح عبدا للجنس ، ظل يسبح فى ماخور النظام ، ولا يمكنه قط أن يخدم أهدافه كرجل ثورى . قال:

– سأذهب . ولكن لن أضيع وقتى ، لقد علمتنى أمى إلى أى حد يمكن للانسان أن يكون حقيرا .

قال كريم : انتظر ، سوف أعد لك قهوة ، ألا تريد أن تتناول فنجان قهوة ؟

تذكر أنه قد خيب أمل كل الأنظمة المدنية عندما لم يقدم شيئا لطاهر . فأحس بخجل شديد .

لم يستدر طاهر ليعلن موافقته أو قبول دعوته . فقد راحت أصوات قبقابه تدق السلم لفترة ، ثم اختفت للأبد .

عبرت "قمر" السطح ، واقتربت من عشيقها :

– من هذا الرجل ؟ إنه يخيفنى .

رد كريم : انه صانع قنابل .

اندهشت الفتاة : قنابل . يانهار أسود .

– بالعكس . انه نهار رائع .

ثم أمسك كتفها وضمها اليه . وأعادها إلى الحجرة . لكن حكاية الاغتيال هذه لم تعطه أى رغبة فى ممارسة الحب .

وفى ظهيرة اليوم التالى ، وبينما هو يفتح الجريدة التى أحضرها له خادمه علم هيكل نبأ اغتيال المحافظ . وفى الصفحة الأولى من الجريدة صورة تمثل عربة المحافظ محطمة من انفجار قنبلة . وصورة طاهر . دامى الوجه متورما . وقد كُبلت يداه فى قيود ممتدة أمامه بطريقة تنم عن الاعتزاز . ملأت تفاصيل الاغتيال صفحات عديدة . لم يذهب هيكل بعيدا . فرك الجريدة وألقاها أرضا ، فقد بُغت برعب هذا العنف المجانى . فالمحافظ الذى كاد يختفى تماما من الحياة ، قد أصبح شهيدا على يدىّ طاهر ، وأصبح الجلاد ضحية ، ونموذجا حيا للوطنية والفداء لأجيال المستقبل وسط المخادعين الخالدين .